
روايات عالمية
AMBY
القوزاق
THE COSSACKS
٥٠
مليما

القوزاق

للكاتب الكبير **ليو تولستوى**

تعريب حسين القباني

روايات عالمية

العدد رقم ٣٠٠

القوزاق

الفصل الأول

الرحيل

كان السكون يخيم على موسكو . وبين كل فترة طويلة واخرى كانت احدى المركبات تمضى على الشوارع المكسوة بالجليد . وكانت كل نافذة مظلمة ، ومصابيح الشوارع مطفأة . اما اجراس الكنائس فكانت هى وحدها التى ترسلُ دقاتها المتباعدة مؤذنة بفجر يوم جديد . الشوارع مهجورة .. وبين الحين والآخر كانت احدى الزحافات تشق طريقها على الشارع المكسو بالجليد لتمضى الى شرع آخر ، بينما يغالب سائقها النوم فى انتظار احد الركاب ، ومرت سيدة عجوز فى طريقها الى الكنيسة . وفى داخل الكنيسة كانت الايقونات المذهبة تعكس الاضواء الحمـــراء الخافتة المرسلة من الشمعدانات . كان العمال قد بداوا ينهضون بعد ليل شتاء طويل لينصرفوا الى اعمالهم .

ولكن الســـادة المترفين كانوا .. كعهـــدهم فى كلْ ليلة .. مستيقظين .

كانت اضواء حانة شيفالير ــ المخالفة للقانون فى تلك الســاعة ــ تلوح من وراء فرجة فى خصاص النافذة . وامام الحانة كانت تقف زحافة خاصة ، وبعض المركبات ، بينما وقف سائقوها وظهور بعضهم الى ظهور بعضهم الآخر التماسا الدفء . وكان ثمة مركبة بـريد

التفكير ايضا . اما حارس البوابة المدثر الى عينيه من فرط الشعور بالبرد ، فقد وقف محتميا فى ركن من البناء .

وقال لنفسه تابع مرهق كان ينتظر فى الردهة :

ــ مامعنى كل هذه الثرثرة .. ولماذا لا تطــول ثرثرتهم الا فى نوبتى ؟ .

وكانت أصوات الشبان الثلاثة تسمع وهم يتناولون عشاءهم فى الغرفة المجاورة . وكانت بقايا الطعام والشراب متناثرة عــلى مائدتهم . وأحد هؤلاء الثلاثة كان نحيلا ضيق الصدر قصـــير الجسم جالسا يرنو الى صديقه الموشك على الرحيل بعينين مجهدتين تنمان عن الاشفاق . وكان الثـــانى طويل القامة يداعب بأصابعه سلسلة مفاتيحه . أما الثالث الموشك على الرحيل ، فكان مرتديا سترة جديدة من فراء الغنم ، كما كان يروح ويجيء فى جــوانب الغرفة ويكسر بين أصابعه لوزة بين الحين والآخر . وكان متـــألق النظرات ، متوهج الوجه ، ترفرف ابتسامة غامضة على شفتيه أما حديثه فكان حارا مصحوبا بحركات من يديه لتصور المعانى التى تعجز الكلمات عن التعبير عنها .

كان يقول فى تلك اللحظة :

ــ انني الآن استطيع أن أتحدث بصراحة ، لا دفاعا عن نفسى ، ولكن لأنكما تفهماننى كما أفهم نفسى ، ولا تنظران الى الموضوع من الزاوية التى ينظر اليه منها الدهماء .

ثم استدار الى الشاب القصير النحيل الذى كان ينظر اليــه باشفاق وأردف قائلا :

ــ تقول أننى اسات اليها بقطعى علاقتى بها ؟ .

فأجاب الشاب القصير النحيل بمزيد من الشعور بالارهاق :

ــ نعم .. بكل تأكيـــد .

ــ انني اعرف لماذا تقول هذا . ان من رأيك ان الانسان يجب



أن يشعر بالسعادة حين يجد امراة تحبه كما يشعر بها حين يبادل امراة ما الحب . ولكن شتان بين الأمرين .

ـ يكفى يا ولدى ان يكون الانسان محبوبا .

ـ لا .. لابد ان يكون الحب متبادلا .. ان الحب من طـــرف واحد تعاسة ، نعم .. ان من سوء حظ الانسان أن تحبه امـــراة لايستطيع أن يحبها بدوره .. لأنه سيكون عاجزا عن أن يمنحهـــا من نفسه شـــيئا .

ثم لوح بذراعيه واستطرد قائلا :

ـ لو كانت الأمور تحدث بطريقة منطقية لاستراح النـــاس .. أشعر كأنى اسرق حب هذه الفتاة ، وحتى أنت ترى هذا . لاتنكر.. ولكن معظم الأحداث تقع على غير ما يشتهى المرء .. نعم .. اننى ومع ذلك .. فهل تعلم أن هذه الحماقة الغرامية هى الوحيـــدة ـ بين جميع حماقاتى ـ التى لاأشعر بالندم من ارتكابها .. اننى لم احاول منذ اللحظة الأولى أن أخدعها . لقد ظننت فى أول الأمر أنى أحبها ، ولكننى اكتشفت بعد ذلك اننى خدعت نفسى ، واننى لا استطيع أن أستمر فى هذا اللون من الحب ، ولكنها عاندت واصرت على أن نستمر فى حبنا .. فهل ثمة لوم على لأننى عجزت عن حبها؟ ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟.

فقال صديقه القصير النحيل وهو يشعل سيجارة حتى يطرد النوم عن عينيه :

ـ حسنا .. لقد انتهى كل شىء بينكما الآن . وهذا هو المهم . انك لم تحب فى حياتك ولا تعرف ما هو الحب.

فأمسك الشاب الموشك على الرحيل برأسه بين يديه وحاول أن يقول شيئا .

وبعد فترة صمت ، قال :

ـ لم احب فى حياتى ؟ نعم .. هذه هى الحقيقة .. اننى لم أحب فى حياتى . ولكننى أتمنى أن افعل هذا . وليست هنـــاك

امنية اعظم من هذه الامنية . ومرة اخرى اسأل .. هــل الحب موجود حقا ؟ ان هناك شيئا ناقصا فى كل عاطفة حب بين رجل وامرأة .. وهذا الشيء الناقص هو الذى يجعل كل حب وهما .. ولكن انتهى كل شيء كما تقــول .. واشعر الآن اننى مقبل على حياة جــديدة .

وعندئذ قال الشاب الطويل الراقد على المتكأ يداعب سـلسلة مفاتيحــه :

ـ لكى تملأها مرة اخرى بالمشكلات .

ولكن الشاب المسافر تجاهله وقال :

ـ اننى حزين وسعيد لهذه الرحلة .. وانا أعرف لماذا انا سعيد اما لماذا انا حزين ، فلا اعرف .

وراح يتحدث لنفســه وكانما لايوجد فى الغرفة سواه .. وفجاة فتح الباب ووقف فيه تابع شاب فى سترة من فراء الغنم ،ومعطرف صوفى حول عنقه . وقال للشاب المسافر

ـ اولفين ديمترى اندريفتش .. ان سائق الرحانة لم يعــد يطيق الانتظار . والجياد واقفة منذ الساعة الحادية عشرة مساء ، وهى الآن تقترب من الرابعة .

ونظر اولفين ـ الشــاب المســـافر ـ الى تابعه فانيوشــا .. ثم قــال :

ـ نعم يافانيوشا .. لقد حانت لحظة الوداع .

وتبادل الشبان الثلاثة القبلات . وشرب اولنين ثمالة كاسه ، ثم صافح صديقه القصير النحيل بحرارة .. وقال له وهو مضطرم الوجــه :

ـ لسوف اكون صريحا فى حديثى الآن ، وهذه الصراحة نابعة من حبى لك . انك تحبها اليس كذلك ! لقد كنت اعتقد انك تحبها من اعماق قلبك فهل انا على صواب ؟.

فقال الشاب القصير النحيل بصوت هادىء :

ــ نعم

ــ اذن ارجو ان تسعد بها وتسعدها .

ودخل خادم الحانة وقال بصوت يغلب عليه النعاس :

ــ معذرة ايها السادة . لقد حان وقت اطفاء الانوار .

ثم استدار الى الشاب الطويل .. واردف قائلا :

ــ هل اقدم لك ياسيدى قائمة الحساب ؟.

ــ نعم .. اكم ؟!.

ــ ستة وعشرين روبلا .

وبينما كان الشاب الطويل يدفع الحساب ؛ خرج المساكين وصديقه القصير النحيل الى الردهة .. وكان هذا يقول :

ــ وداعا يا صديقى العزيز .

وظفرت الدموع الى عيون الصديقين . واستدار اولنين الى الشاب الطويل حين لحق بهما وقال :

ــ لقد دفعت الحساب ! حسنا .. ارجو ان تضيفه الى قائمة مصروفاتى عندما ترسل الدفعة الاولى من ايرادى الى .

ــ سمعا وطاعة .. آه .. لشد ما احسدك على هذه الرحلة يا اولنين .

وجلس اولنين فى الزحافة .. وافسح بجانبه مكانا وقال للشاب الطويل :

ــ اذن لماذا لاتاتى معى ؟. هلم اركب .

ولكن هذا تجاهل الدعوة وقال :

ــ ليكن الله معك يا اولنين .. وداعاً .

وفرقع السائق بسوطه .. وانطلقت الزحافة بصريرها على جليد الشارع ..

وقال احد الصديقين للآخر:

ـ انه شاب لطيف.. اولنين! ولكن ما اغرب قيامه بهذه الرحلة الى القوقاز ! لماذا القوقاز بالذات ؟ ومتطوعا فى الجيش المرابط هناك ايضا ! انني شخصيا لا استطيع ان افعل هذا مهما يكن الثمن ..

وبعد برهة صمت ، اردف قائلا :

ـ هل سنتعشى في النادي ؟.

ـ نعم ..

وشعر المسافر اولنين بالدفء .. بل بالحرارة المنبعثة من سترته المصنوعة من فراء الغنم . وكان جالسا فى ارضية الزحافة، وقد فتح ازرار سترته ، بينما اخذت الجياد الثلاثة الغزيرة الشعر تجر سيقانها من شارع مظلم الى آخر . شوارع لم يرها اولنين من قبل .. ولكنها كما خيل اليه ، لابد من ان يمر بها كل مسافر فى طريقه الى خارج المدينة فى رحلة طويلة. وكان الظلام المحيط به مطبقا ومثيرا للانقباض .. اما النفس فكانت زاخرة بالذكريات ذكريات الحب .. والندم .. والشعور بالقدرة على كبت الدموع .

الفصل الثانى

الرحلة

ظل اولنين يكرر القول لنفسه :

ـ اننى احبهم .. احبهم جدا .. انهم اصدقاء طيبون .

ولكن .. لماذا كان يرفض ان يبكى . ومن هم هؤلاء الأصدقاء الطيبون ؟ انه لم يكن يعرف على وجـه اليقين . وكان بين الحين والآخر يتلفت حوله وينظر الى بعض المنازل ويتساءل لماذا شيدت على هذا الطراز .. واحيانا كان يخامره العجب والتساؤل لماذا يجلس السائق وفانيوشا قريبين منه ، ولماذا يتارجح فى هذه الزحافة فوق هذه الشوارع الجليدية .. ومرة أخرى كان يقول لنفسه :

ـ اصدقاء من الدرجة الاولى .. ما أشد حبى لهم .

وخيل اليه انه مخمور .. ولكن لا .. حقا لقد شرب بضع كؤوس من الخمر .. الا ان احساسه هذا الجديد لم يكن نابعا من الخمر ، وانما من شيء آخر . لقد تذكر كلمـات الوداع والمصافحة .. والنظرات المبللة بالدموع ، والصمت ، انهم جميعا يحبونه ، حتى الذين كانوا يكرهونه .. تماما كما يحدث للانسـان المحتضر عند ساعة الاعتراف .. ومن يدرى ، فلعله لن يعود من رحلته هذه ابدا ..

ولكنه في اعماق نفسه كان يشعر ان احساساته هذه لم تكن نابعة من الحب لاصدقائه ومعارفه ، ولا من الحب لهذه الفتاة « التي لم يحبها قط » وانما من الحب لنفسه .. الحب للحياة الجديدة المشرف عليها .. الحب لكل ماهو خير في نفسه ، ولم يعد في تلك النفس شيء غير الخير .. وان هذا الشعور ليرغمه على اطلاق الدموع الحبيسة في عينيه .

كان اولنين شابا ترك دراسته الجامعية قبل اتمامها ، ثم اشتغل موظفا في هذه الادارة الحكومية او تلك . وقبل ان يبلغ الرابعة والعشرين من عمره كان قد ضيع نصف ثروته الطائلة . وعلى الجملة كان واحدا من هؤلاء المعروفين في موسكو باسم « الطبقة الراقية » ! .

كان منذ الثامنة عشرة من عمره متحررا من كل القيود بعد ان مات والداه تاركين له ثروة كبيرة . وهكذا انطلق في الحياة يفعل مايشتهي بلا قيود مادية او اخلاقية .. بلا قيود عائلية او اجتماعية .. بلا ايمان بالحب .. لم يكن يعرف شيئا سمه الحب بين رجل وامراة .. وانما هي الغريزة التي تحكم هذه العلاقة فقط . ومع هذا كان يشعر بالحرج والارتباك امام كل فتاة وسيدة جميلة يراها لاول مرة . ورغم احتقاره للالقاب وذوى المراكز الكبيرة ، الا انه كان يشعر بالزهو كلما تلقى دعوة من عظيم او امير لحضور احدى الحفلات . وكان اذا شعر ان مغامرة ما او اى حدث سيؤدي الى تقييد حريته في التصرف ، اسرع بالتخلص من الموقف قبل ان يتمادى فيه .. وهكذا كان ينطلق كالطائر الحر في المجتمع الروسي ، الا ان هذا الانطلاق كان سببا لضياع نصف ثروته ، ووقوعه في كثير من المشكلات الناتجة عن علاقات بالنساء مما ادى به في النهاية الى مشكلة خطيرة مع احدى فتيات المجتمع الروسي ، ولم يكن هناك من سبيل للخروج من هذه المشكلة الا القيام برحلة طويلة تهدأ خلالها صيحات الاستنكار ويسترد بعدها مكانته في المجتمع ، وحتى بدء هذه الرحلة كان يشعر انه عاش حياته في سلسلة من الاخطار وانه لم يستطع ان يصنع لنفسه هدفا في الحياة .. ولكنه ، مع بدء هذه الرحلة ، شعر انه سيبدأ

حياة جديدة ، بلا اخطار ، وبلا نزوات وبلا ندم .. وانما حياة لها هدف .. ولها طابعها الخاص من السعادة .

وهكذا كان احساس اولنين فى اول صباح اشرق عليه وهو ماض فى رحلته الطويلة .. انه يترك وراءه ذكريات مرحلة من حياة مليئة بالأخطار والنزوات ، ويبنى فى خياله قصورا فى الهواء له.

ولما تركت الزحافة المدينة وراءها واندفعت فى طريق زراعى تمتد على جانبيه اراضى واسعة مكسوة بالجليد ، شعر اولنين بالغبطة والرضى ، ودثر نفسه جيدا بسترته وبغطاء صوفى ، ورقد فى قاع الزحافة لينام . ولكن اهتياج مشاعره جعل النوم عسيرا عليه .. وعادت الذكريات تتزاحم فى ذهنه . ذكريات الأصدقاء .. والسهرات .. والديون المتراكمة عليه .. والحب الاخير .. آه .. لقد ظن يوما انه وقع اسيرا لحب هذه الفتاة الثرية .. ولكنه صحا ذات يوم واذا هو متحرر من هذا الحب .. واذا هو سعيد .. ان قيود الحب لا تفترق كثيرا عن قيود السجن .. وما اسعد الانسان الذى يستطيع ان يحطمها وينجو منها . ومع ان هذه الفتاة كانت على استعداد لان تتزوجه رغم ديونه ؛ ورغم ان الزواج منها كان سيحرره من قيود هذه الديون ، الا انه فضل قيد الدين على قيد الزواج من فتاة لا يحبها . ان قيد الدين يمكن ان يتحرر منه بعد عام من الحياة المتقشفة الخالية من السهرات الحمراء ومن الاسراف فى شرب الخمر ، ومن البعد عن موائد الميسر .. اما قيد الزواج من فتاة لا يحبها فكيف ومتى يمكنه التحرر منه ؟.

قرر ان يعيش عاما بعيدا عن اضواء المجتمع .. ودبر له امر هذه الرحلة الى القوقاز جماعة من اصدقائه .. بينهم شاب من حاشية القيصر نفسه . وهكذا قبل تطوعه فى الحامية المرابطة فى القوقاز . ومن يدرى .. فلعله يقوم بأعمال بطولية تجعله جديرا بوسام ولقب كولونيل فى الحرس القيصرى .

ووصل اولنين مع الضحى الى المخفر الثالث فى الطريق ؛ فشرب فيه بضعة اقداح من الشاى وساعد فانيوشا فى اعادة وضع الحقائب والحاجيات ثم الاستقرار بينما يحسب المسافة التى

اقطعها ؟ والمسافات الباقية حتى نهاية الرحلة .. المسافة الى كل مخفر .. والمسافة الى كل مدينة ، والاماكن التى سيتناول فيها افطاره او غداءه او عشاءه ، والحانات التى سيبيت فيها لياليه .. وفى الوقت نفسه كان يحسب ايراده من املاكه الواسعة فى ذلك العام .. وكم سيحتاج من مبالغ لتسديد ديونه ، وكم سيحتاج للحياة فى القوقاز ، وكم سيتبقى بعد ذلك !.

وتنهد فى ارتياح عندما ادرك انه يستطيع تسديد ديونه كلها فى ثمانية اشهر ، وان يتسلم فى كل شهرين الف روبل ، وان يتبقى له بعد ذلك أكثر من عشرة آلاف روبل يبدأ بها مرحلة جديدة من الحياة .

وتطلع بخياله الى ارض القوقاز .. انه لم يزرها من قبل .. ولكنه سمع الكثير عن شجاعة رجالها ، وعن جمال نسائها ، وعن لخشونة الحياة فيها .. وقرر فى نفسه أن يحيا فيها حياة خالية من كل خطأ .. ان الخطأ فى بلاد كهذه قد يكلفه حياته .. وهو فى هذه السن احرص ما يكون على هذه الحياة !.

وامتد به الخيال الى كوخ جميل ، والى زوجة قوقازية حسناء موفورة الشباب والقوة .. تنتظره على مدخل الكوخ حين يعود اليها فى المساء مقبرا ، مكللا بالمجد ليتلقى قبلاتها ، وضماتها وليقضى معها فى ضوء القمر امسية جميلة .

ومن يدرى .. فلعله يعود بها الى موسكو ليعلمها اللغات وآداب المجتمع ، ويجعل منها كوكبا لامعا فى سماء المجتمع الروسى بموسكو .

وفى صباح اليوم التالى ، تكرر هذا كله مرة اخرى .. المناظر .. والمخافر ، والاراضى الشاسعة على الجانبين .. والاستراحات .. وشرب الشاى ، والذكريات .. والآمال !.

ويقبل الليل .. ويغلب النوم اولنين على امره .. ليعود مرة اخرى مستيقظا فى صباح جديد !.

***

كان اولنين يشعر انه كلما ازداد بعدا عن وسط روسيا، ازدادت ذكرياته القديمة بعدا عن ذهنه ، وكلما اقترب من ارض القوقاز ، ازداد احساسا بالبهجة والامل . وكثيرا ما خطرت بباله فكرة الاستقرار نهائيا في القوقاز وعدم العودة الى موسكو اطلاقا .. وكان يقول لنفسه في هذا الشأن :

ـ ان الناس هنا لا يعرفون عني شيئا .. ليس بينهم احد سبق له الذهاب الى موسكو ، او يحتمل ان يذهب اليها .

وعندئذ كان يخامره شعور بهيج جديد بالتخلص من ماضيه كله .. من ديونه .. واصدقائه المتمعين بثروته .. ومن نفاق المجتمع .. ومن يدري .. فلعل هذا ما سوف يحدث ! هكذا كان يحدث نفسه .

ولما وصل الى القوقاز السفلي ، استبدل بالزحافة مركبة بريد حتى اذا ترك مدينة ستافروبول وراءه ، اشتدت حرارة الجو مما جعله يخلع سترته الوبرية ـ آه .. انه يعيش في جو ربيعي .. ربيعي ناضر جميل عاطر الهواء بالشذى الفواح من الزهور ..

وفي المساء كان الحراس يحذرونهم من الخروج الى ما وراء هضاب القوقاز ، حتى لايقعوا في ايدي عصابات قطاع الطرق من قبائل التتار . واثارت هذه التحذيرات في قلب فانيوشا الخوف والقلق ، وجعلته ينام وبندقيته المحشوة بالبارود بجواره . اما اولنين ، فكان يزداد احساسا بالبهجة والرضى . وفي احدى المخافر ، قال لهم الحارس ان جريمة قتل رهيبة وقعت في الطريق الجبلي خارج المناطق الآهلة .. ولما استأنفوا السفر في اليوم التالي ، لاحظ اولنين ان الرجال جميعا كانوا يسيرون مسلحين بالبنادق والخناجر والسيوف ، وقال لنفسه « الآن وصلنا الى براري القوقاز » وراح يحدق في الافق البعيد آملا ان يرى في اية لحظة جبال القوقاز المتوجة بالثلوج التي طالما سمع عنها . وفي ذات مساء اشار سائق المركبة الى قمم وراء السحب ، فنظر اولنين اليها بلهفة ولكنه رأى السماء ملبدة بالغيوم التي اخفت وراءها الجبال . ومن ثم لم يستطع الا ان يرى افقا رماديا تتخلله سحائب بيضاء

وعبثا حاول أن يرى شيئا من الجبال في تلك الركام الرمادية .. وخيل اليه ان الوان الجبال التى طالما سمع بها عن جبال القوقاز المتوجة بالثلوج ليست الا شيئا من صنع الخيال ، مثل موسيقى باخ ، ومثل الحب ، وكلاهما لا يؤمن به .

ولكنه حين استيقظ مبكرا في صباح اليوم التالى باحد المخافر ، فوجىء وهو يلقى نظرة عابرة الى اليمين ، برؤية قمم هائلة ناصعة البياض قريبة منه ، وكأنها لا تبعد عنه غير بضع خطوات .. وكان الجو صحوا والهواء منعشا والرؤيا واضحة.. وبدت له هذه القمم الناصعة كأنها عند متناول يديه برغم انهـا في الواقع كانت تبعد عنه مئات ومئات من الأميال . ولما أدرك مدى بعدها عنه ، ومبلغ ضخامة هذه الجبال ، خشى أن يكون الأمر كله حلما أو سرابا .. ومن ثم راح يؤكد لنفسه انه يقظان ، وأن ما يرى ليس الا حقيقة لا سبيل الى انكارها .

وسأل سائق المركبة مشيرا اليها :

ـ ما هذا ؟ ما هذا ؟

فقال السائق بغير اهتمام :

ـ عجبا ! انها الجبال .

وقال التابع فانيوشا :

ـ لقد ظللت انظر اليها مدة طويلة .. اليست رائعة ! انهم لن يصدقوني حين اعود الى موسكو واحدثهم عنها .

واستمرت المركبة في طريقها حتى اقتربت من نهر تيريك .. ورأى اولنين رجالا ونساء جميلات من قبائل القوقاز .. وقال لنفسه في النهاية :

ـ هانذا أمضى في براري القوقاز غير خائف .. ولماذا اخاف ومعى بندقيتي ، وشبابي .. وقوتي .. وهذه الجبال الشامخة !.

الفصل الثالث

القوزاق

كانت قرى القوزاق العليا تتناثر على ضفة نهر تيريك اليسرى
ن مسافة خمسين ميلا طويلا ، وكان نهر يتريك الذى يفصل بين
بائل القوزاق ، وبين قبائل التتر الجبلية ينطلق فى مجرى عريض
حف به من الجانبين نباتات الغاب العالية ، وأشجار البلوط والحور
رادغال النباتات المتسلقة ، اما الضفة اليمنى ، فكانت تتناثر عليها ؟
وعلى الهضاب والتلال الممتدة منها الى الجبال قبائل التتر
الروسية . اما قرى القوزاق ، فكانت تقع بعيدا عن الضفة اليسرى
بمسافة نصف ميل تقريبا ، وبين كل قرية واخرى نحو ستة أو
سبعة اميال . وعلى طول هذه الضفة اليسرى ، كانت تقوم مخافر
الحراس القوزاقيين الذين يؤدون مهمة طرد عصابات التتر التى
اعتادت ان تغير بين الحين والآخر على قرى القوازق . اما فى
الشمال فكانت تبدأ صحراء نوجاى او هضبة مزدوك التى تمتد الى
مناطق التركمان . واما فى ناحية الجنوب ، بعد نهر تيريك ، فكان
يمتد نهر شيسكتابا ، ثم سلسلة جبال كوشكاليكوف . ثم الجبال
السوداء ، ثم القمم المكسوة بالثلوج ، التى يراها الناس فقط ، دون
ن يصلوا اليها .

والقوزاقى قد يحترم ويحب عدوه الجبلى ، ولكنه يكره الجنود

الروسيين المرابطين في بلاده ، لأنهم يرمزون للضغط والاحتلال والقهر والتسلط وتقييد حريته ، بل ان القوزاقي يعتبر الفلاح الروسي غريبا منه ، دخيلا عليه ، متطفلا على ارضه . وقبائل القوزاق ترى ان افضل الاسلحة هي التي يشترونها من قبائل التتر الجبلية ، أو يظفرون بها منهم في المناوشات الحربية. وكذلك كانوا يعتبرون ان احسن الجياد هي جياد تلك القبائل التي يحصلون عليها بالثمن أو بالسرقة . والشاب القوزاقي يفخر ويزهو على اخوانه حين يتقن الحديث باللغة التترية . وكذلك رجال التتر لم يكونوا يحترمون احدا ولا يحفلون بأحد الا بالقبائل القوزاقية ..

والقوزاقي يشغل وقته أما جنديا في أحد مخافر الحراسة ، أو في الصيد داخل الغابات أو في صيد السمك .. أو في الحملات الحربية وهو قلما يعمل شيئا في القرية .. انه لا يذهب الى قريته الا بين الحين والآخر .. وحين يذهب اليها ، فانما ليقضي فترة من الراحة والاستجمام اذا كان متزوجا ، وفترة من الحب والغزل مع بنات القرية ان كان اعزب. والقوزاق يصنعون خمرهم بأيديهم من كروم العنب التي يزرعونها بكثرة . وهم لا يشربونها بادمان ، ولا الى حد السكر . والقوزاقي ينظر الى المراة كأنها مخلوق ملك يديه .. ولكن الحقيقة هي أن المرأة تكاد تكون كل شيء في حياة الرجل القوزاقي .. انها هي التي تشرف على شئون البيت وتربية الاولاد ، وهي التي تقوم بالعمل في المزارع والحقول ، وهي على الجملة اقوى احتمالا من الرجل ، واذكى ، واكثر اتزانا ، واقدر على العمل .

والرجل القوزاقي يرتدي قلنسوة وصديرية فوقها سترة من الوبر شتاء ، وسراويل خفيفة . اما المراة ، فانها تعصب راسها بمنديل زاهي اللون يصل الى عينيها ، وتخفي نصف جسمها الأعلى بصديرية محكمة تبرز جمال الصدر ، وتحتها جلباب طويل من الحرير الطبيعي الملون .

ويعيش القوزاق على محصول أرضهم من الكروم والأعناب والفواكه والبطيخ والخضروات والسمك وصيد البر والأذرة والبقول .

وقرية نوفوملسك التى تقرر ان يذهب اليها اولنين ، تقع على ميلين ونصف ميل من ضفة نهر تيريك .. وهذه المسافة التى تفصلها عن النهر عبارة عن غابات كثيفة الأشجار ، ملتوية الممرات والدروب ، لا يستطيع السير فيها الا الرجل المدرب عليها ، وعلى جانب الطريق الرئيسى فى الغابة يجرى جدول مائى عذب ، وتمتد على ضفته الاخرى بساتين الكروم حتى تصل الى حافة صحراء نوجاى . اما القرية فهى محاطة بالحقول وبالاراضى الجرداء وبالنباتات البرية المختلفة ،ويمكن الوصول اليها من ناحيتين ،لكل ناحية بوابة كبيرة عالية يحرسها مدفع من طراز قديم ظفر به القوزاق فى احدى المعارك الحربية القديمة . ويقوم على حراسة كل بوابة قوزاقى فى ملابس عسكرية كاملة . ولكن الحارس كثيرا ما يتركها ليمضى الى الغابة لصيد الحيوانات البرية او السمك ، وتوجد على البوابة الرئيسية لوحة بيضاء مكتوب عليها هذه الارقام: عدد المنازل ٢٦٦ وعدد السكان الذكور ٨٩٧ وعدد السكان الاناث ١٠١٢ . وتقوم أكواخ القرية القوزاقية على دعائم ترتفع عن الارض نحو قدمين ونصف قدم . وهى مشيدة من خشب السنديان ومسقوفة ببراعة بالقاب المتين . ويتكون كل كوخ من غرفة او اثنتين ، واحيانا من ثلاث .. والغرفة المخصصة للفرن تكون ارضيتها من البلاط الذى يتحمل الحرارة ، وتقع بين كل مجموعة من الاكواخ حارة او زقاق او شارع ضيق . كما تقوم حولها اشجار تظللها وتشيع فى اجوائها شذى الازهار . وتكثر فى القرية نباتات عباد الشمس الذى يتسلى ببذوره (١) شباب القرية وفى الميدان الفسيح فى وسط القرية تقوم ثلاثة حوانيت لبيع بذور عباد الشمس والحلوى وبعض البقول . اما بيت الكولونيل قائد الحامية فهو اكبر البيوت ، ويقوم وراء عدد من الاشجار العالية وله نوافذ وشرفات تؤدى الى حديقة واسعة . وتبدو شوارع القرية فى ايام الاسبوع خالية ، لان سكانها ينصرفون عنها الى اعمالهم المختلفة . الى الحقول او الغابات او مراكز الحراسة . ولا يبقى فى القرية الا العجائز والاطفال والمرضى .

---

(١) بذور عباد الشمس تشبه اللب الذى يتسلى به شبابنا واطفالنا

وفي امسية من الامسيات المالوفة في القوزاق ، عندما بدات الشمس تختفي وراء الجبال وترسل اشعتها النارية الحمراء الى السماء وتلون السحب بالالوان القرمزية المتدرجة ، اخذ سكان القرية يهرعون في العودة اليها قبل ان يداهمهم الليل المليء بالمخاوف في سمت الوحوش البرية والعصابات الجبلية . وهكذا لاح كان القرية تستيقظ من سبات الأصيل لتستقبل العائدين من الحقول والغابات . النساء يسرعن حاملات المحاصيل ، والفتيات يقدن المركبات التي تجرها الثيران والابقار ، والرجال يمضون راجلين او على متون الجياد .. وتمتليء شوارع القرية بالرجال والنساء والمركبات والابقار واسراب الناموس والزنابير ، ويمتليء الجو بالاحاديث والضحكات ، وبين الحين والآخر يرى جندي قوزاقي يمضي بجواده الى نافذة كوخ فيطرق عليه ، فاذا اطلت منه احدى الفتيات ، راح يتبادل معها همسات الغزل ويتواعد معها على اللقاء ليلا .

وينتشر الأطفال والغلمان يصرخون ويلعبون « النحلة » وترتفع اصوات الرجال بالدعابات ، وتتصاعد من مداخن الاكواخ سحب الدخان التي تنم عن الأفران الموقدة لاعداد طعام العشاء .

وكانت العجوز اولتيكا زوجة الضابط المتطوع بالتدريس في مدرسة الحامية العسكرية ، قد خرجت من كوخها . كغيرها من النساء العجائز ، ترقب ابنتها الشابة الحسناء ماريانكا وهي تقود المركبة من الحقول الى ساحة الكوخ . وما كادت الجاموسة الضخمة تقترب من الكوخ حتى اندفعت الى الساحة وهي تخور بسرور حين رأت سيدتها العجوز .. وفيما كانت ماريانكا تعمل على فصل الجاموسة والبقرة من المركبتين ، وتدفع بهما الى المربط ، هتفت بها امها قائلة :

ـ اخلعي حذاءك يا ماريانكا حتى لا يبلى بسرعة من كثرة الاستعمال .

ولكن ماريانكا لم تغضب ، وانما ابتسمت واسرعت الى المربط حاملة اوعية اللبن لتحلب الجاموسة والبقرة . وبعد ان فرغت

اسرعت الى الفرن .. ووقفت الام بباب الكوخ ترقب الحياة وهي تنبض بقوة في انحاء القرية قبل أن تهدأ مرة اخرى عند انسدال الليل .

ومن الكوخ المقابل عبر الشارع اقبلت سيدة طويلة القامة قوية البنية الى العجوز اولتيكا تلتمس منها عود ثقاب .. وقد قالت :

ـ طاب مساؤك يا صديقتي .. هل فرغت من عملك ؟

ـ ان ماريانكا تضرم النار في الفرن .

ثم اردفت قائلة وهي تشعر بالزهو لانها ستسدي صنيعا لجارتها :

ـ هل تريدين عود ثقاب يا صديقتي ؟

ودخلت المرأتان الكوخ ، وفتحت اولتيكا علبة الثقاب بيد مرتعدة ، وقدمت لجارتها عودين فقط ، لان الثقاب كان من السلع النادرة التي يعسر الحصول عليها في براري القوزاق . وبدا ان الجارة لم تحضر للثقاب فقط ، وانما لتثرثر قليلا مع جارتها العجوز اولتيكا . ومن ثم جلست في استرخاء وقالت :

ـ الا يزال زوجك العزيز غائبا في المدرسة ؟
فقالت اولتيكا زوجة المدرس :

ـ نعم .. انه لا يزال يعلم الشباب .. وقد كتب يقول انه سيحضر في الاجازة .

ـ انه رجل مثقف جدا .. وهو يقوم بعمل مهم يا صديقتي .. أليس كذلك ؟

ـ نعم .. حقا .

ـ ان ابني ليوكا لا يزال حارسا في المخفر .. وهم لا يسمحون له بالعودة الى البيت هذه الايام .

ولاح بوضوح ان الجارة جاءت لتدير الحديث وتركزه حول

ابنها ليوكا الذى التحق منذ عهد قريب بالجيش ، واصبح احد حراس المخافر فى القوقاز .. وكانت أمه ترغب فى زواجه من ماريانكا ابنة جارتها اولتيكا .

وقالت اولتيكا :

ـ اذن فهو لا يزال فى المخفر ؟

ـ نعم يا صديقتى .. انه لم يعد منذ الاجازة الماضية .. وقد أرسلت اليه اول أمس مع صديقه فوشكين صديرية وقميصا . وقد قال لى فوشكين ان ليوكا بخير ، وان الضباط يحبونه ، وقال أيضا انهم فى المخفر يتربصون للتتر ، وان ابنى سعيد بعمله جدا .

فقالت اولتيكا زوجة المدرس :

ـ آه .. شكرا لله على هذا .. لاشك أن ابنك جدير بلقب « الخطاف » .. وهو اللقب الذى اطلقه عليه أهل القرية .

وكان أهل القرية قد أطلقوا هذا اللقب على ليوكا عندما استطاع ان « يخطف » غلاما من النهر قبل ان يغرق . وكانت اولتيكا تهدف بحديثها عن ليوكا الى ارضاء أمه .

وقالت الام بصوت ينم عن الرضى :

ـ اننى احمد الله فى كل يوم لأنه اعطانى ابنا طيبا . انه شاب ممتاز والجميع يحبونه ويثنون عليه .. وان املى الوحيد قبل الموت أن اراه متزوجا من فتاة جميلة بارعة .

فردت العجوز أولتيكا فى صوت ينم عن المكر وهى تعيد بأصابعها المعقدة الغطاء الى علبة الثقاب :

ـ حسنا .. أليس فى القرية بنات كثيرات ؟

فأومأت ام ليوكا برأسها وقالت :

ـ نعم .. كثيرات يا صديقتى .. كثيرات . وهاهى ذى ابنتك



ماريانكا .. انها عذراء جميلة ، وان الانسان ليحتاج الى سنوات لكى يجد من هى اجمل منها .

وكانت زوجة المدرس تعرف الهدف الذى تسعى اليه ام ليوكا. ورغم موافقتها هى على هذا الهدف ، الا انها رات ان تتمنع قليلا ، لانها ، اولا ، زوجة مدرس مبسوط الحال ، بينما ليوكا ابن فوزانى من العامة ، ومتوفى ابضا ! ولانها ، ثانية ، لم تكن على استعداد الافتراق عن ابنتها بسرعة . ومن ثم قالت فى تحفظ :

ـ نعم .. عندما تكبر ماريانكا سنفكر فى امر زواجها .

وقالت ام ليوكا :

ـ لسوف ارسل اليك الخاطبة فى اقرب وقت . نعم .. هذا ما سافعله .. وعندما نجمع محصول العنب ، سوف اكون تحت امرك . سآتى اليك ونتحدث فى هذا الامر مع زوجك الطيب .

فقالت ام ماريانكا فى ترفع :

ـ وما جدوى الحديث مع زوجى . ان امر زواج ماريانكا بيدى انا . ولكن لنترك هذا كله للوقت المناسب .

ولما رات الزائرة امارات الحزم على وجه جارتها ، نهضت بسرعة لتنصرف وهى تقول :

ـ حسنا يا صديقتى .. لا تنسى هذا الموضوع ، وفكرى جيدا فيما تحدثت به اليك .. والآن ، يجب ان اسرع بالعودة لاضرم الفرن واعد العشاء .

وفيما هى تنصرف ، قالت لنفسها حين رات ماريانكا فى ساحة الكوخ :

« آه .. هذه هى الزوجة التى اتمناها لابنى ليوكا .. انها ملكة جمال .. وقد حان وقت زواجها لتكون ربة اسرة ، وزوجة لابنى ليوكا .. »

الفصل الرابع

الصياد العجوز

كان رجال القرية يشغلون وقتهم بالاعمال العسكرية ، ولا سيما اعمال الحراسة فى المخافر وعند اقتراب المساء ، كان ليوكا ـ الخطاف ـ الذى دار حوله حديث المرائين ، واقفا فى برج المراقبة بمخفر بيزن برونسك القائم على الضفة اليمنى لنهر تيريك. كان معتمدا على سياج البرج ، يمد البصر الى ما وراء النهر حينا ، والى زميله الواقف فى اسفل البرج حينا آخر ، حيث كان يتبادل معه الحديث ، بين آن وآخر . وكانت الشمس قد غابت وراء القمم المتوجة بالثلوج ، واخذت السحب تتجمع فى السماء . وطاب الهواء بعد وقدة الحر ، وانسابت من الغابات نسائم رطبة منعشة ، ولكن الجو حول المخفر كان لا يزال حارا . وارتفعت اصوات الحراس القوزاقيون وهم يتبادلون الحديث ، واخذت ترفرف فى الجو كأنها اصوات عدد من الطيور البرية . وكانت ضفة النهر امام المخفر مهجورة ، ليس فيها الا نبات الغاب . اما فى الضفة الاخرى فكانت النباتات تمتد صاعدة الى سفوح الجبال التى تقوم فيها قرى التتر .

وعلى البرج وقف ليوكا ـ الخطاف ـ بقامته الطويلة ووجهه الوسيم الذى ينم عن القوة والفتوة . وكان ـ رغم حداثة عهده بالجيش ـ قد ابدى من ضروب الشجاعة ما جعله معروفا بين

اخوانه . وفي وقفته هذه لمح من بعيد نساء احدى القرى التترية يخرجن جماعات ، فقال وكأنه لا يحدث احدا معينا :

ـ ترى لماذا تخرج هؤلاء النساء هكذا جماعات .

ورد صديقه نازار الذي كان مسترخيا في جلسته تحت البرج :

ـ من اجل الحصول على الماء من النهر ..

فضحك ليوكا وقال :

ـ ما رأيك لو افزعتهن برصاصة من بندقيتي .

ـ ان بندقيتك لا تصل الى هذا المدى .

فقال ليوكا وهو يذب عنه الزنابير المحلقة حوله :

ـ اهذا رأيك ؟ ان بندقيتي تجاوز هذا المدى .

ثم اردف بعد برهة صمت :

ـ عندما يحتفلون بعيدهم الكبير ؛ سوف اذهب الى صديقي جيري خان ، احد اعيانهم واشرب معه زجاجة من جعتهم .

وسمع الصديقان حفيفا في النباتات القريبة منهما . ثم ما لبث ليوكا ان رأى كلب صيد مرقط يسرع نحوهما وقد ادنى انفه من الارض ؛ فعلم فورا انه كلب الصياد المحوز ايروشكا . وما هي الا لحظة حتى برز الصياد نفسه من ادغال الغاب في طريقه الى المخفر .

وكان الصياد ايروشكا قوزاقيا ضخم الجسم ، غزير اللحية ابيضها عريض الكتفين ، طويل القامة . وكان يرتدي سترة ريفية ممزقة ، مشدودة بحزام عند الوسط ، ويضع على راسه قلنسوة من الجلد ، وينتعل حذاء من جلد الغزال مشدودا الى ساقيه بالاربطة . وعلى كتفه كان يحمل شبكة يختفي وراءها عندما يذهب لصيد البط البري ، وحقيبة فيها دجاجة صغيرة لاغراء البوازي .

وعلى الكتف الاخرى كان يحمل قطة برية ضخمة صادها في يومه ذاك . اما حزامه الجلدى العريض فكان مليئا بالجيوب التى تحتوى على الرصاص والبارود ومذبة لطرد الهوام وخنجر في غمد عليه بقايا دماء قديمة . وكان يحمل في احدى يديه بندقيته ، وفي الاخرى بطتين بريتين .

ولما راى المخفر ، توقف وصاح قائلا لكلبه بصوت جهورى رنان :

ـ مهلا يا ليام .

ثم رفع قبعته الى كتفه وقال لحراس المخفر بنفس الصوت الجهورى الرنان وكأنه يتحدث الى اشخاص في الجانب الآخر من النهر :

ـ طاب ليلكم أيها الأبناء .

وارتفعت الاصوات من كل جانب في مرح :

ـ طاب ليلك ايها الصياد ايروشكا .

وقال الصياد وهو يمسح بكم سترته العرق عن وجهه العريض :

ـ ماذا وراءكم من انباء ايها البواسل ؟

وغمز نازار بعينه وقال :

ـ يوجد في مكان قريب « بازى » شديد البأس في حاجة الى صياد بارع يقضى عليه .

فقال العجوز :

ـ كفى كذبا يا نازار .

ـ انتظر وسوف ترى بنفسك .

وضحك الحراس القوزاق الآخرون . وكان من عادتهم ان يسخروا من الصياد العجوز كلما راوه . وقال ليوكا في لهجة استنكار :

ـ ان نازار يا ايروشكا بكلب كعادة الحراس »

وصمت نازار ، وقال الصياد ايروشكا !

ـ اذا كان هناك ما يحتاج الى المراقبة ، فسوف ابقى بينكم « لكن .. الم تروا خنازير برية فى هذا المكان ؟.

وهنا قال الجاويش وهو يحك ظهره بكلتا يديه !

ـ خنازير برية يا ايروشكا ! ماذا تعنى ؟ اننا هنا نراقب التتر عبر النهر ..

وكانت الانباء قد تواترت بان عصابة من التتر تنوى الهجوم فى تلك الليلة على القرية القوزاقية ، ومن ثم اردف الجاويش قائلا :
ـ الم تسمع شيئا عن نوايا هؤلاء التتر يا ايروشكا ؟.

ـ لا .. لم اسمع شيئا. الديكم بعض الخمر ، اننى فى حاجة الى كاس ؛ لانى متعب ولسوف اهديكم ذات يوم بعض البط البرى .. هلم يا ابنائى .. قدموا الى كاسا من خمرنا الحلوة »

فقال الجاويش وكانه لم يسمع ما قال الصياد !

ـ اذن فانت ذاهب للصيد الليلة ؟.

ـ نعم .. اننى افكر فى قضاء الليلة هنا .. وربما استطعت ان اصيد شيئا ينفعنى فى الاجازة . فاذا حالفنى الحظ ، سوف اعطيكم نصيبكم .. والله يشهد على .

وقال ليوكا بصوت لفت اليه جميع الحراس !

ـ اسمع يا ايروشكا . اذا سرت الى اعلى النهر ، فسوف تجد قطيعا من الخنازير البرية صدقنى . لقد صاد احد زملائنا خنزيرا منها اول امس . اننى لا اكذب عليك .

وكانت نبرات ليوكا تنم على انه لا يمزح ، ومن ثم قال الصياد العجوز !

ـ آه .. ان ليوكا بينكم كما ارى .. ليوكا الخطاف .. اين رأيت هذه الخنازير البرية يا ليوكا ؟.

فقال ليوكا وهو يهم بالهبوط من البرج :

ـ لسوف آتي معك لاطلعك على المكان الذى قتلنا فيه الخنزير البرى أول أمس .. وقد حان وقت تغيير الحراس الليلة .

وفيما كان ليوكا يمضى الى الصياد العجوز ، هتف به الجاويش قائلا :

ـ عد الى مكانك يا ليوكا .

فقال ليوكا للجاويش الذى كان يسمى جوركى :

ـ ان نوبتك للحراسة يا جوركى قد حانت ..

ثم التفت الى الصياد واردف قائلا :

ـ هلم الى الصيد يا ايروشكا .

***

ولما عاد ليوكا وايروشكا من رحلتهما القصيرة ، كان الليل قد أوغل . وكان الجنود القوزاق قد فرغوا من نوبة حراستهم للمخفر . فاجتمعوا فى حلقة ليتناولوا وجبة العشاء .. وفى خلال هذا كان الصياد العجوز ايروشكا جالسا تحت شجرة يترقب ظهور البازى بعد أن وضع له الدجاجة فى مكان ظاهر ليغريه بها . اما ليوكا ؟ فقد ذهب الى ضفة النهر ، وراح ينصب الفخاخ بين النباتات الغابية ليصيد بها البط البرى ..

وسمع ليوكا صوت صديقه نازار ، فى دغل قريب ، يقول له :

ـ ليوكا .. يبدو ان الجميع ذهبوا لتناول العشاء .

ثم برز نازار من الدغل حاملا فى يده بطة برية ، فقال له ليوكا :

ـ اوه .. من اين اتيت بهذه البطة يا نازار .. لاشك انها وقعت فى احد فخاخى .

وكان نازار ـ مثل ليوكا ـ في نحو الرابعة والعشرين من العمر . ولكنه كان صغير الجسم ، حاد الصوت ، وكان صديقا وجارا لليوكا . وقد رد قائلا :

ـ انني لا اعرف على وجه اليقين . .

ـ لقد كانت هناك ، في الحفرة تحت شجرة الجوز . . لقد وضعت فخاخي بها في الليلة الماضية . انها بطتي لاشك في هذا .

وكان ليوكا جالسا متربعا ، كالتتر ؛ يضع فخا جديدا بين الاعشاب . ولما فرغ ، تناول البطة البرية من نازار وراح يتحسس عنقها في ابتهاج ويقول :

ـ لسوف نجعل منها وجبة عشاء فاخرة . خذها واذبحها وانزع ريشها .

ـ هل سناكلها بمفردنا ام نهديها للجاويش ؟

ـ لقد اكل الجاويش الآن حتى شبع .

ـ انني لا احب ذبح الطيور .

ـ حسنا . . ساذبحها انا .

ولما فرغ من ذبحها ؛ القى بها الى نازار وقال !

ـ هلم اصنع لنا منها وجبة شهية .

فتناول نازار البطة بيد مرتعدة وقال :

ـ اسمع يا ليوكا . . ان هذا الجاويش اللعين سوف يرسلنا للحراسة على ضفة النهر الليلة انها نوبة فوشكين ؛ ولكنه ارسله ليأتي اليه بابريق خمر . . الى متى يرغمنا على ان نتوب في الحراسة من غيرنا !.

فقال ليوكا متجاهلا حديثه :

ـ امسك هذا الطرف من الشبكة يا نازار .

واطاع نازار الامر ، ولكنه استطرد يقول :

ـ لسوف اخبره اننا متعبان الليلة . . او اخبره انت ، انه ينفذ دائما رغباتك سواء كنت على خطأ او على صواب .

فقال ليوكا بصوت حاد :

ـ ولماذا تهتم بالامر ؟ لو كنا فى القرية نستمتع بوقت سعيد مع النساء ، لكان الأمر مختلفا اما ونحن هنا ، فما الفرق بين وجودنا داخل المخفر او خروجنا للحراسة على ضفة النهر ؟.

ـ هل تفكر يا ليوكا فى الذهاب الى القرية ؟.

ـ نعم .. فى الاجازة .

ـ ان بوركا يقول ان صاحبتك دانابكا تخونك مع نومشكين .

فكشر ليوكا عن أسنانه وقال :

ـ حسنا .. لتذهب هى وهو الى الشيطان .

فعاد نازار يقول :

ـ لقد ذهب بوركا الى بيتها ذات مساء . وكان زوجها غائبا . وهناك وجد نومشكين معها يأكل الفطير . وبعد أن جلس بوركا برهة معها ، انصرف . وفيما هو يمر تحت نافذتها سمعها تقول لنومشكين « حسنا لقد انصرف هذا الزائر الثقيل .. ما رايك فى ان تقضى الليلة معى ولا تذهب الى المخفر ؟»وعندئذ قال بوركا لها بصوت مسموع « هذا افضل طبعا » .

فقال ليوكا :

ـ انك تكذب يا نازار .

ـ اقسم لك انها الحقيقة .

ـ حسنا .. اذا كانت قد وجدت حبيبا آخر ، فلتذهب الى الجحيم ، ان القرية مليئة بالعذارى الجميلات . وانا قد ضقت ذرعا بدانابكا على كل حال .

فابتسم نازار وقال :

ـ انك شاب محبوب من العذارى يا ليوكا .. لماذا لا تتبادل الحب مع ابنة المدرس .. ماريانكا .. انها ليست على علاقة مع أحد من القرية .

فقطب ليوكا جبينه وقال :

ـ ولماذا ماريانكا بالذات . ان كل البنات سواء .

ـ حسنا .. جرب حظك معها .

ـ سوف احاول . ولكنني مصر على ان القرية مليئة بالعذارى الجميلات .

ثم نهض وسار فى طريقه وهو يصفر بشفتيه الى المخفر . وكان الحراس قد فرغوا من تناول العشاء وراحوا يتناقشون فيمن ينبغى ان يقوم بنوبة الحراسة على ضفة النهر بدلا من قومشكين .

ولما وصل نازار وليوكا ، هتف الجاويش قائلا :

ـ آه .. هاهو ذا ليوكا .. يمكنه ان يقوم بالحراسة بدلا من قومشكين الليلة .. وليأخذ معه نازار .. وكذلك يمكن ان يصحبهما العجوز ايرجوشوف .. لقد نال نصيبه من النوم الليلة .

وقال نازار بصوت خافت :

ـ وانت ايها الجاويش .. الم تنم طول الليل؟ .

وضحك زملاؤه الذين سمعوه .

وفى تلك اللحظة تقدم العجوز ايرجوشوف متعثرا الى الغرفة، فقال له الجاويش :

ـ استعد يا ايرجوشوف للحراسة على ضفة النهر مع نازار وليوكا .

وكان ليوكا قد استعد ووضع بندقيته على كتفه.اما الجاويش فقد صاح بلهجة آمرة :

ـ هلم يا أولاد .. اسرعوا بتنفيذ الاوامر .

وقبل ان يرد احد اردف قائلا خشية الا تطاع اوامره !

ـ لولا ان الضابط سيحضر الليلة للتفتيش ، لما ارسلت احدا للحراسة . ولكن .. لا .. لقد تواترت الانباء بان ثمانية من التتر سوف يتسللون الليلة الى هذه الضفة للاغارة على القرية .. يجب أن تكون مستعدين لهم .

وقال العجوز ايرجوشوف لزميليه :

ـ حسنا .. يجب أن نبدأ الحراسة فورا . ان الاوامر أوامر ، ولا يسعنا الا الطاعة . هلم .

وفي تلك اللحظة ، سمع الجميع صوت الصياد ابروشكا وهو يصيح

ـ مهلا يا أولاد .. لسوف أذهب معكم .. أنتم للحراسة ، وأنا لصيد الخنزير البرى .

الفصل الخامس

مصرع التتري

كان الظلام كثيفا عندما سار الصياد العجوز ابروشكا والقوراقيون الثلاثة بعباءاتهم ابوبرية وبنادقهم على اكتافهم ، فى الطريق الى ضفة نهر تيريك ليكمنوا فى المكان الذى يرقبون منه عصابة التتر المغيرة . وكان نازار كارها هذه المهمة ؛ ولكن ليوكا ظل يحثه حتى اسرعوا الى بقعة على النهر تحيط بها من ثلاثة جوانب نباتات الغاب العالية ؛ وهنا قال نازار :

ـ مارايكم فى هذا المكمن ؟

فقال له ليوكا :

ـ لا بأس .. يمكنك ان تبقى هنا ريثما أمضى بايروشكا الى المكان الذى تختفى فيه الخنازير البرية .

وقال ابرجوشوف :

ـ ان هذا المكان مناسب جدا .. اننا نستطيع منه ان نرى دون ان يرانا احد .. ولهذا يجب ان نكمن فيه .

وبسط نازار وابرجشوف عباءتيهما على العشب ، ورقدا عليهما اما ليوكا فقد مضى مع الصياد ابروشكا على ضفة النهر وهو يقول هامسا !

ـ ان المكان الذى ابتغيه ليس بعيدا .. لسوف امضى بك اليه، وقد رايت فيه ذات يوم بعض آثار الخنازير البرية حين جاءت لتشرب .

ورد الصياد هامسا :

ـ انك فتى واسع الحيلة ايها الخطاف .

وبعد مسافة يسيرة ،توقف ليوكا ،ونظر الى الارض ، ثم صفر بصوت خافت وقال :

ـ انها تاتى الى هـذا المكان لتشرب .. اترى هـذه الآثار الحديثة لحوافرها يا ايروشكا !

وقال الصياد فى ابتهاج :

ـ بارك الله فيك باليوكا .. لا شك أن احد الخنازير البرية فى مكان قريب من ضفة النهر .. لسوف ابقى هنا لارقبه وعد انت الى زميلك .

وتدثر ليوكا بعباءته جيدا ، وسار عائدا بمعرده الى حيث ترك زميليه .

وقال لنفسه فى اثناء السير :

« من يدرى .. فلعل بعض رجال التتر يرقبوننى الآن ، أو لعلهم مختبئون فى مكان ما على هذه الضفة .

وتنبه من افكاره على طشيش مفاجىء فى الماء ، واذا بخنزير برى كبير ينطلق هاربا فوق ضفة النهر ليختفى بين نبات الغاب . واسرع ليوكا مصوبا بندقيته ، ولكن الخنزير البرى اختفى بين الغاب قبل ان يطلق عليه ليوكا الرصاص . وبصق الشاب على الارض فى ضيق واستنكار ثم استانف السير ، حتى اذا اقترب من المكمن ارسل صفيرا خافتا رد عليه احد زميليه .

وكان نازار قد رقد على عباءته واستغرق فى النوم . اما ايرجوشوف الذى كان متربعا فى جلسته ، فقد تزحزح قليلا ليفسح مكانا لليوكا بجواره . ثم قال له :

ـ ان هذا المكان مناسب جدا ؛ وانا مستريح فيه .. هل ذهبت بأيروشكا الى مكان الخنازير البرية ؟.

ـ نعم .. وقد هرب مني أحدها اثناء عودتي .. ولاشك انه نفس الخنزير البري الذي رأيته اول امس. ولعلك سمعت طشطش الماء وهو يهرب !.

ـ نعم .. وقد عرفت فورا السبب ، وقلت لنفسي « ان ليوكا قد فاجأ خنزيرا بريا » .

ثم تدثر في عباءته واردف قائلا :

ـ لسـوف انام قليـلا .. وعليـك أن توقظنا عندما يصـيح الديك . ويمكنك بعدها ان تنام لنقوم نحن بالحراسة . ام لعلك تريد ان تنام اولا ؟.

ـ لا .. نم انت .. فانني اشعر بالرغبة في السهر الآن ..

وكانت ليلة حارة كثيفة الظلام ليس فيها نسمة هواء . وكانت النجوم تلمع في الأفق البعيد في جانب من السماء .. اما الجانب الآخر الاكبـر .. فكان محجـوبا بسحب داكنة زادت من ظلمة الليـل .

وظل ليوكا ساهرا متحفزا يضع اصبعه على زناد البندقية كلما لمح شيئا يتحرك وسمع حركة خفيفة .. ومرت الساعات بطيئة، وبدا الجو يبرد والهواء يمتلىء رطوبة .. وتحركت السحب بعيدا عن وجه السماء ، كاشفة عن قمر صغير في هزيعه الاخير .. وكان ضوءه الشاحب المرتعش ينساب في هدوء على صفحة الماء وعلى ضفتي النهر .. ومن الافق الشرقي البعيد بدات طلائع الفجر تتسلل في بطء شديد .. وفتح نازار عينيه وتمتم بكلمات غامضة ثم عاد واستغرق في النوم. وشعر ليوكا بمزيد من الضجر. فنهض واخرج خنجره من الغمد وراح يشذب عود غاب ليصنع منه عصا .. وكانت افكاره تحوم حول عصابات التتر المغيرة .. لقد اعتاد رجال هذه العصابات ان يغيروا ـ في جراة عجيبة ـ على قرى القوزاق دون مبالاة بما ينالهم من قتل ومطاردة عنيفة . ومن يدري .. فلعـل

احدهم الآن يعبر النهر فى مكان آخر .. وان ليوكا ليمد بصره الحاد هنا وهناك .. ولكنه لم ير شيئا وارتدت افكاره الى القرية .. الى حبيبته دانايكا .. ثم خامره احساس بالمرارة والغضب .. وازدادت طلائع الفجر العصبة اقترابا . وانتشرت على صفحة الماء تباشير الصباح الباكر .. وطارت هنا وهناك من اعالى الشجر بعض افراخ النسور .. وصاح احد الديكة مؤذنا بظهور يوم جديد وتبعه ديك آخر .. ثم ثالث ..

وقال ليوكا لنفسه : لقد آن ان اوقظ زميلى .

وكان قد فرغ من تشذيب عود القاب ، وشعر باجفانه تثقل ؛ واستدار ليوقظ زميله ، وعندئذ سمع - أو خيل اليه انه سمع - طشيشا فى الماء .. واستدار مرة اخرى بسرعة وامعن النظر الى الافق البعيد عبر النهر ، وراء التلال .. هناك حيث كان الصباح يزحف وراء الثمانة الباقية من القمر . ورأى الشاطىء الآخر من النهر ؛ وجذع شجرة يطفو على سطح الماء وخيل اليه برهة انه هو الذى يتحرك ،على حين ثبت جذع الشجرة وماء النهر فى مكانهما . ولكنه ركز نظراته على الجذع الأسود الذى كان يمتد منه غصن صغير : لقد بدا له ان الجذع يطفو بطريقة غير طبيعية .. انه يتحرك نحو الشاطىء الذى يقف فيه ليوكا بدلا من أن يمضى مع تيار النهر . ومد عنقه وراح يرقب بامعان شديد . وفجاة خيل اليه انه راى ذراع رجل تبدو تحت الجذع ، ومن ثم همس لنفسه « هذه فرصة سانحة اقتل فيها بمفردى تتريا من رجال العصابات » واعدبندقيته وصوبها ووضع اصبعه على الزناد ،وقال لنفسه « اننى لن اوقظهما ولكن قلبه كان يخفق بشدة وهو يرى الجذع يقترب خفيفا وكانه افعى توشك ان تنقض عليه وبذل ليوكا جهده ليمتلك زمام اعصابه انه اذا نجح فى قتل تترى دون مساعدة من احد فسوف يغدو بطلا فى انظار اهل القرية جميعا .. ومن يدرى .. فربما منح وساما ومكافاة وترقية . ولعق شفتيه وركز انظاره .. ورأى من وراء الجذع راسا ، انه راس تترى فعلا .. حسنا ..عندما يرفعه مرة اخرى فسوف يطلق ليوكا عليه النار .. وحانت الفرصة ..

وتمتم ليوكا بعبارات ابتهال ، واطلق النار ، واختفى الراس بقوة تحت الجذع .. وصاح ابرجوشوف وهو ينتصب جالسا :

ـ امسك به .. امسك به قبل ان يفر الى الغابة .

وقال ليوكا بحدة :

ـ تنبه يا ابرجوشوف .. انه ليس خنزيرا بريا ، وانما تترىء من رجال العصابات .

وقال نازار الذى ايقظه دوى انطلاق النارى :

ـ ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟.

ـ اقول انني قتلت تتريا كان ينوى التسلل الينا عبر النهر .

وفرك نازار عينيه وعاد يردد كالببغاء :

ـ قتلت تتريا ؟ قتلت تتريا ؟.

ولم يجب ليوكا ، وانما اعاد حشو بندقيته ، وراح يرقب الجذع والذراع المعلقه به والراس الذى كان يطفو ويغوص فى الماء.

وعاد نازار يقول فى ذهول :

ـ هل قتلت تتريا حقا ؟. وبمفردك ؟.

ـ نعم ؟.

ـ محال .. محال .. لاشك ان بندقيتك انطلقت من تلقاء نفسها .

ـ قلت لك انني قتلت تتريا .. اطلقت الرصاص على راسه وهو يتسلل سابحا الينا .. انظر الى هذا الجذع الطافى .

وفرك ابرجوشوف عينيه وقال :

ـ كفى سخرية منا .. انماتقوله مستحيل .. اين هذا التترىء المزعوم :

ولما نظر الى حيث اشار ليوكا .. همهم نازار قائلا فى خولة

ـ وبحنا .. لاشك ان زملاءه سيغيرون علينا الآن .

لم اختبر بندقيته ..



واردف قائلا !

ـ ان هذا التترى كان يقوم بعملية استكشاف ولا ريب ... ولعل زملاءه قد عبروا النهر فى مكان آخر .

وفك ليوكا حزامه وبدا يخلع سترته .

وهنا قال له ابرجوشوف :

ـ ماذا تعمل ايها الأحمق المتهور .. انك اذا خرجت من هذا المكمن فسوف تتمزق برصاص زملاء هذا التترى القتيل .. اسرع بانازار الى المخفر وكن حريصا وابتعد عن ضفة النهر بقدر الامكان ..

فقال نازار غاضبا :

ـ اتريد منى الذهاب بمفردى ؟ لماذا لاتذهب انت ؟.

وكان ليوكا قد خلع سترته وسار نحو حافة الماء . ولكن ايرجوشوف صاح به قائلا :

ـ لاتتقدم باليوكا .. كن على حذر . ان الجثة توقفت فى مكان ضحل من الشاطىء .. انتظر حتى يأتى بعض حراس المخفر ... اسرع بالذهاب بانازار ، مم تخاف ؟ .. ليس هناك ما يدعو الى الخوف ، اننى اؤكد لك .

وقال نازار :

ـ ليوكا .. اسرع الآن .. اخبرنا كيف حدث هذا ؟.

وكان ليوكا قد غير رايه فى تلك اللحظه ، فلم يمض الى حافة الماء .. وانما استدار عائدا وهو يقول لزميليه:

ـ اسرعا معا الى المخفر ، وسوف ابقى هنا للحراسة ، واخبرا حراس المخفر ليرسلوا رجالا على متون الجياد حتى يمكننا اللحاق بباقى افراد العصابة اذا كانوا قد عبروا النهر .

ووثب ابرجوشوف واقفا وقال بسرعة :

ـ هذا ما قلته .. انهم الآن على هذه الضفة ويجب ان نلحق بهم قبل ان يغيروا على القرية .. هلم نسرع الى المخفر .

ثم أردف قائلا وهو يهم بالاسراع مع نازار الى المخفر عبر الغابات التى تفصل النهر عن مراكز الحراسة!

ـ خذ حذرك يا ليوكا والا فاجاك رجال العصابة وذبحوك!

فقال ليوكا وهو يختبر بندقيته:

ـ اذهبا وانا ساعرف كيف احافظ على نفسى .

وجلس فى المكمن يرهف السمع والبصر . وبدا القلق يساوره بحين قاس فى خياله المسافة التى تفصل النهر عن المخفر . كان يخشى ان يهرب رجال العصابة قبل ان تصل النجدة من المخفر .. وكان يعد بندقيته للانطلاق فورا حين يلمح واحدا منهم على الضفة القريبة او البعيدة .. ولكن شيئا واحدا لم يكن يشغل باله .. وهو التفكير ـ مجرد التفكير .. فى انه قد يصاب فى مقتل!.

***

وازداد ضوء الفجر .. وبدات جثة التترى تبدو بوضوح وهى تتارجح على سطح الماء الضحل .. وفجاة سمع حفيفا وراءه ، وراى رؤوس اعواد الغاب الريشية تتحرك ، فشرع بندقيته وصوبها .. ولكنه سمع صوت الصياد العجوز ابروشكا وهو يهتف به قائلا :

ـ لاتطلق النار على عمك ياليوكا .

وقال ليوكا وهو يرى ابروشكا يبرز من بين اعواد الغاب!

ـ لقد كدت أقتلك بحق السماء .

ـ وماذا فعلت فى اثناء غيبتى .. هل صدت شيئا .

ووقف ليوكا متحفزا ، مختالا ، يقول!

ـ نعم .. صدت حيوانا بريا خطيرا .

وكان الصياد العجوز يحملق فى الجثة الطافية فى الماء الضحل ، على حين استطرد ليوكا يقول!

ـ كان يسبح وراء جذع شجرة .. ولمحته .. انظر .. سراويل زرقاء ، وبندقية كما يبدو الا تراه ؟.

وقال الصياد العجوز بصوت حازم حزين النبرات :

ـ انني اراه طبعا .. لقد قتلت شجاعا .

ـ نعم .. لانني لو لم اقتله لقتلني .. ان نازار وابرجوشوف في طريقهما الآن الى المخفر لاحضار بعض زملائنا .. فمن المحتمل ان يكون رجال العصابة في طريقهم للاغارة على القرية الآن .

وفي تلك اللحظة سمع الاثنان اصوات رجال راكبين من المخفر وهم يسرعون نحوهما .. وقال ليوكا هاتفا :

ـ هل احضرتم الطوق معكم ..

وقال احد رجال المخفر حين وصلوا الى المكمن :

ـ انك فتى بارع ياليوكا .. احضره الى الشاطىء .

وبدا ليوكا يخلع ملابسه دون انتظار لاعداد الطوق ، ودون ان يكف لحظة واحدة عن النظر الى ضحيته .

وصاح الجاويش محذرا :

ـ انتظر الطوق يا ليوكا .. ان نازار آت به .

وقال آخر :

ـ لعله لايزال حيا ياليوكا .. خذ حذرك منه .

وقال ليوكا وهو يقفز الى الماء :

ـ انني لست طفلا .

وسرعان ماراح يضرب الماء بذراعيه في قوة ، حتى اذا وصل الى مكان الجثة في الماء الضحل ، راح يهزها وهو يهتف قائلا :

ـ انه ميت تماما .. لقد اصبته في راسه .

وكان الشركسي القتيل مرتديا سراويل زرقاء وقميصا وسترة ، وكان قد ربط في اعلى جذع الشجرة ، بندقيته وخنجره .

ولما عاد ليوكا بالجثة الى الشاطىء ، التف زملاؤه حولها ...

وقال احدهم :

ـ لقد احسنت ياليوكا .. مابرعك .

وقال آخر :

ـ ماأشد امتقاع وجهه .

وقال ثالث :

ـ لاشك ان هذا التترى كان يحاول استكشاف المنطقة قبل اغارة زملائه عليها ..

وقال الأول :

ـ وهذا يعني انه كان يتمتع بشجاعة فائقة .

ـ انظروا الى رأسه الحليق ولحيته المصبوغة بالحناء ..

ـ وانظروا الى سترته .. انها جديدة .

وقال الجاويش وهو يقلب بين يديه بندقية وخنجر التترى القتيل :

ـ اسمع ياليوكا .. يمكنك ان تحتفظ بالخنجر والسترة .. وسوف انقدك ثلاث روبلات فضية ثمنا للبندقية .. انني اريد الاحتفاظ بها تذكارا .

وصمت ليوكا .. وكان وجهه ينم على ان هذا العرض لايرضيه ، الا انه لم يستطع أن يعترض ولكنه رأى ان يستفيد من الموقف ..

فقال للجاويش :

ـ حسنا .. وارجو بهذه المناسبة ان تأذن لي بالعودة الى بيتي لمدة يوم او يومين .

فقال الجاويش وهو لايزال يقلب البندقية بين يديه :

ـ طبعا .. طبعا .. يمكنك ان تذهب .

ثم اردف قائلا لبعض رجاله :

ـ احملوا هذه الجثة الى الفناء الخلفي للمخفر ، وضعوا فوقها بعض الاغطية لحمايتها من الشمس . فلاشك ان اهله سيأتون لدفع الفدية واستردادها .

وقال احد الحراس :

ـ ان حرارة الشمس لم تشتد بعد .
وقال آخـر :
ـ وكيف يكون الحال لو تسلل ثعلب ونهشها ؟.
ورد الجاويش قائلا :
ـ اذن يجب ان يقوم احدكم على حراستها . انهم سيأتون لدفع الفدية ، ومن الافضل ان يستلموها سليمة .
ثم اردف قائلا لليوكا فى مرح :
ـ عندما نظفر بالفدية ياليوكا ، عليك ان تسعى زملاءك فى المخفر دنا كاملا من الفودكا . . مارأيك ؟.
وقال كثير من الحـراس :
ـ نعم . . هذا هو التقليد المتبع . . ما أسعد حظك يا ليـوكا اذ قتلت تتريا بمفردك وانت فى هذه السن !.
وقال ليوكا :
ـ من ذا يشترى الخنجر ؟ ارجو ان يدفع المشترى ثمنا معقولا له وللسراويل ايضا .
واشترى احد الحراس السراويل بثلاث روبلات . واشترى آخر الخنجر بثمن دنين من الفودكا .
وقال ليـوكا :
ـ الآن استطيع ان اشترى لكم من القرية دنا كاملا من الفودكا .
وقال الجاويش بلهجة آمرة :
ـ هلم احملوا الجثة الى فناء المخفر .
ولما تردد الحراس فى اطاعة الامر ، صاح ليوكا :
ـ ماذا تنتظرون ايها الاخوان ؟ احملوها . .
وعندئذ تقدم الحراس ، مرغمين ، لاطاعة الامر ، وكان ليـوكا هو رئيسهم المباشر .

وقال نازار وهو يفحص رأس التترى القتيل :

— لقد اصبته فى جانب الرأس ، ولكن الوجه سليم .. ان أهله لن يجدوا مشقة فى التعرف عليه .

ولم يقل أحد شيئا ، وانما خيم الصمت على الجميع وهم فى طريق العودة الى المخفر حاملين جثة التترى .

وارتفعت الشمس قليلا .. وظل الهواء منعشا فى تلك الفترة من الصباح .. وكان الندى لايزال يلمع على الاعشاب والنباتات ولكن الحراس ظلوا يسيرون فى صمت حتى قطعه ليوكا وهو ينظر باعجاب الى جسم القتيل :

— لقد كان هو ايضا رجلا شجاعا .

ورد عليه أحد زملائه قائلا :

— نعم .. ولو كان هو الذى لمحك اولا لما أمكنك أن تسير بيننا الآن .

ومرة اخرى خيم الصمت على الموكب . وما هو الا نصف ساعة حتى وصلوا الى المخفر حيث وضعوا الجثة فى الفناء الخلفى وستروها ببعض الاغطية ، وخصصوا لها حارسا .

وانطلق ليوكا وصديقه نازار فى الطريق الى القرية عبر الغابات التى تقوم بينها وبين المخفر .

وقال ليوكا بصوت أجش :

— ساجعل حبيبتى تعرف الآن من هو الجدير بحبها .

ولوى نازار شفتيه وقال :

— لاشك انه البطل الذى قتل تتريا بمفرده .

— عليك ان تذهب الى بيتها يانازار دون ان تخبرها انى ارسلتك فاذا كان زوجها غائبا فاسرع واخبرنى .

قلمق نازار كتفيه و قال :

ـ وهل ستشركني معك في سهرتك ؟!

ـ طبعاً .. طبعاً .. اذا لم نقض الليلة سهرة رائعة ؟ فمتى نفعل ؟!

ولما وصلا الى القرية ، شربا بشربان الخمر حتى فقدا الصواب وهكذا امضيا الليلة غائبين عن وعيهما .

الفصل السادس

البحث عن مسكن

بعد يومين من الاحداث السابق ذكرها : وصل الى قرية نوفوملتسك الفوراقية كتيبتان من فرقة المشاه بالجيش القوقازى وفى ميدان القرية : اجتمعت المركبات وجيادها وحاجيات الجنود واخذ الطهاه يحفرون اماكن لاضرام النار ويجمعون الوقود لاعداد وجبة العشاء على حين انشغل الجاويش بدفع مرتبات الجنود . وراح عدد من هؤلاء الجنود يقيمون الدعائم لانشاء مرابط للجياد . وعلى جانب من الميدان ، تراكمت صناديق الذخيرة ، وعلى الجانب الآخر وضعت الاوعية الضخمة الخاصة بطهو الطعام ، وتوزيعه ، وكان يشرف على هذه العمليات كلها قائد الكتيبتين ، ومساعده الضابط ، وصف ضابط يدعى اونيزيم ميها لوفتش .

وكان اهل القرية ينظرون الى هذا كله فى غير رضى . ولكن الجنود انطلقوا بعد أن تناولوا مرتباتهم ، فى شوارع القرية وميادينها غير حافلين برضاء الاهالى او بسخطهم . وكان كل جندى او كل اثنين معا يدخلان هذا الكوخ او ذاك ، ويغازلان النساء ، ويبسطان ايديهما بالمال والحلوى ، وهكذا لم يكن يخلو فناء كوخ من بعض الجنود الصاخبين العابثين على حين كانت ضحكاتهم تختلط بصياح النساء اللاتى كن يرفضن السماح لهم بالاقامة بينهن ، او بتقديم

مايريد الجنود من ماء او طعام . وكان الاطفال يختبئون هنا وهناك ويحملقون في وجوه الجنود بنظرات يملؤها الخوف . اما الرجال العجائز ، فقد جلسوا امام الاكواخ ينظرون الى ما يجرى في حزن واستسلام .

واستطاع اولنين ـ الذى كان قد مضى عليه ثلاثة اشهر ضابطا متطوعا بالجيش القوقازى ان يجد من يدله على احسن بيت في القرية ، وهو بيت المدرس العسكرى ، ايليا فاسيليفتش .. والده الحسناء ماريانكا وزوج العجوز اولتيكا .

وقال فانيوشا وهو يدخل فناء البيت مع سيده أولنين، راكبين جواديهما بعد مسيرة خمس ساعات متواصلة :

ـ ترى ماذا سيحدث لنا في هذه القرية يااولنين ديمترى اندرتش ؟.

ونظر اولنين في عطف الى تابعه .. ثم ابتسم وقال :

ـ كل خير طبعا .

وكان اولنين قد تغير الى حد كبير .. لقد بدا بعد ثلاثة اشهر من الالتحاق بالجيش وكأنه شاب آخر .. شاب ممتلىء قوة وفتوة .. متوهج الوجه ، ملوح البشرة ، له شارب انيق ، ولحية صغيرة تضفى عليه مزيدا من سمات الرجولة .

وقال فانيوشا وهو ينحنى ليضع الحقائب على الارض :

ـ هذا هو رأيك لانك لاتعرف شيئا عن هؤلاء الناس . انهم لايحبوننا نحن الروسيين .. وان كل غريب يفد الى بلادهم هو موضع الشك والارتياب .. اننا لم نستطع حتى الآن أن نظفر بكلمة منهم .

وقال اولنين وهو لايزال يبتسم :

ـ كان يجب ان تتحدث أولا الى شيخ القرية .

ـ انني لا اعرف مكانه .

وقال اولنين وهو ينظر حوله :

ـ ولكن .. ماذا يثير سخطك الآن يافانيوشا ؟.

ـ كلّ شيء .. اللعنة عليهم .. ذهب صاحب البيت كما قالوا ليصيد السمك .. وزوجته العجوز خبيثة كالشيطان .. وليكن الله في عوننا ضدها .

ووضع الشاب راسه بين يديه وقال :

ـ انني لا ادري كيف سنعيش في هذا المكان اللعين . . انهم اسوا من التتر .. بل ان التتر يعتبرون من اشد الناس حضارة بالنسبة لهؤلاء الهمج .

فقال اولنين دون ان يترجل عن جواده :

ـ اذن فانت لاتشعر هنا بالامن والراحة .

فهز فانيوشا كتفيه كانما يرى ان مثل هذا السؤال لايحتاج الى اجابة . وشغل نفسه بالعناية بالجواد الذى ترجل عنه سيده ، بينما عاد اولنين يقول ببساطة :

ـ اذن فالتترى يعتبر رجلا متحضرا .. بالنسبة لهؤلاء الهمج يافانيوشا ..

فقال الشاب في عناد وغضب :

ـ نعم برغم سخريتك منى .

ـ لاداعى للغضب يافانيوشا .. انتظر حتى اتفاهم مع اصحاب هذا الكوخ . لسوف يتم كل شيء على خير ، واؤكد لك اننا سنقضى هنا اياما او شهورا سعيدة .

ولم يجب فانيوشا ، وانما هز راسه اسفا ، وراح يشيع سيده المتجه الى باب الكوخ بنظرات كلها الاشفاق والرثاء . وكان اولنين يعامل فانيوشا كصديق ، وليس كتابع . ذلك انهما نشأا معا منذ كانا غلامين في الرابعة عشرة . ومن ثم كان شعور كل منهما نحو الاخر اقرب الى الصداقة منه الى شعور السيد نحو التابع او العكس .

وصعد اولنين في الدرجات القليلة المؤدية الى باب الكوخ الاول ـ لان الفناء كان يحتوى على كوخين كبيرين ـ وفتح الباب قليلا . ووثبت ماريانكا التى كانت جالسة مرتدية ثوبا منزليا خفيفا ، والتصقت بالجدار واخفت وجهها بكم ثوبها وراحت تنظر في خوف

وجرع الى أولنين الذى شرع يتقدم الى الغرفة مترددا وهو يقول لنفسه !

ـ ماأجملها ! ولكن القرية مليئة ولا شك بالعذارى الجميلات من هذا الطراز .

وكانت العجوز اولتيكا مستديرة بظهرها الى الباب تكنس الأرضية وهى لاترتدى ايضا غير ثوب واحد من نسيج خفيف ، شأن نساء القوزاق اثناء وجودهن داخل البيوت .

وقال اولنين بصوت مهذب حين راته السيدة العجوز ا

ـ طاب يومك ياأماه .. لقد جئت لاتحدث معك عن السكنى هنا .

فاستدارت المراة العجوز اليه بوجهها الذى كان محتفظا بلمحات من الجمال الدابر ثم قالت بصوت حاد :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ هل جئت لتسخر منا ، لسوف اعلمك كيف تسخر منا ، وليأخذك الطاعون .

وكان اولنين يظن ـ كما قيل له ـ ان جنود الجيش القوقازى الذى ينتمى اليه هم دائما موضع الترحيب والحفاوة من سكان القرى القوزاقية ، ولهذا فوجىء بثورة المراة عليه واستنكارها لوجوده فى بيتها .. ولما حاول ان يؤكد لها انه ينوى ان يقيم فى بيتها بالأجر ، ابت المراة ان تستمع اليه أو تتفاهم معه ، وانما صاحت قائلة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ ومن ذا يريد أن يستقبل وباء مثلك فى بيته؟ انتظر حتى يعود زوجى وسوف يعرف كيف يلقى بك الى الشارع .. اننا لا نريد نقودك ، ام لعلك تظن اننا لم نر نقودا من قبل .. ليت التتر يمزقونك اربا .

وقال اولنين لنفسه : يبدو ان فانيوشا على حق فى مخاوفه ولا شك ان التترى رجل متحضر اذا قورن بهذه المراة القوزاقية الثائرة .

ثم مضى الى خارج الكوخ وشتائم العجوز أولتيكا تتبعه .. وفيما هو يقترب من باب الكوخ اذا بماريانكا تتفلت بجواره ، وهى لاتزال

في ثوبها الارجواني الرقيق ، وبدها على وجهها ثم تهبط الدرجات القليله بسرعة ، ثم تتوقف في الشرفه المؤدية الى الفناء ، ثم تستدير وتنظر الى الشاب اولنين بعينين ضاحكتين .. ثم تسرع وتختفي وراء ركن الكوخ .

وكان لخطواتها الرشيقة . ونظراتها الضاحكة ، وجسمها اللدن تحت ثوبها الارجواني الرقيق . اكبر الاثر في نفس اولنين ومن ثم عاد يقول لنفسه « ما اجمل هذه العذراء .. »

ولما وصل الى فانيوشا .. قال هذا له وهو لايزال مشغولا بالحقائب :

ـ اترى ! ان الفتاة تشبه الغزال البري .

ـ ثم ارسل ضحكة واردف قائلا :

ـ بل هي اشبه ما تكون بالفرس التي لم يروضها احد ! .

***

وفي ساعة متاخرة من اصيل اليوم نفسه ، عاد رب البيت من رحلة صيد السمك فلما علم ان الساكن الجديد ينوي ان يدفع ايجارا لسكناه ، هدأ من ثائرة زوجته ، واتفق مع فانيوشا على قيمة الايجار .

وسرعان ما استقرت الامور في الكوخ . لقد انتقلت الاسرة من الكوخ الامامي الى الكوخ الثاني ، الخلفي ، المخصص لفصل الشتاء، تاركة الكوخ الصيفي لاولنين وتابعه ، نظير ايجار قدره روبلات ثلاث في الشهر . وبعد ان اصاب اولنين بعض الطعام ، قام ليستريح وفي بوادر المساء استيقظ واغتسل وارتدى ملابسه وتناول العشاء ، واشعل سيجارة ، وجلس بجوار النافذة ينظر الى الطريق وكان الجو قد بدأ يلطف . وظلال الكوخ تترامى عبر الشارع المقفر لتصل الى اسفل الكوخ المقابل . واخذت النسائم المنعشة تتهادى وخيم السكون العميق على القرية بعدان استقر الجنود في مساكنهم وكان معظم الرجال والنساء لم يعودوا بعد من الحقول والغابات.

كان مسكن أولنين يقع في نهاية القرية على وجه التقريب .. ومن ثم كان يسمع بين الحين والآخر طلقة نارية من بعيد ، عبر نهر

تيريك وسهول كوميسك التى عبرها فى رحلته . وكان يشعر بتمام الرضا بعد هذه الشهور الثلاثة التى عاشها فى هذا الجو العسكرى . لقد استرد خلالها شبابه الذى كان يضيع فى متاهات حياته المترفة ؛ واسترد مع الشباب قوته وفتوته .. وتذكر فى ابتهاج المعارك التى خاضها مع الجيش القوقازى ، وكيف استطاع ان يواجه الأخطار كأى جندى مدرب باسل ، وبذلك امكنه ان يثبت جدارته للالتحاق بالجيش القوقازى المشهور . وخيل اليه ان ذكرياتا حياته فى موسكو قد اصبحت بعيدة بعيدة : كأنها ذكريات حياة انسان آخر لايمت اليه بسبب . لقد انتهت حياته القديمة تماما لتبدا حياة جديدة ليس فيها اخطاء او نزوات .. انه الآن انسان جديد مع اناس جدد .. انه الآن يستطيع ان يبنى حياة جديدة يفخر بها هو وابناؤه من بعده .

ونظر الى الغلمان الذين كانوا يلعبون «النحلة» فى ظلال الكوخ ثم عاد ينظر الى غرفته الواسعة الرحيبة ؛ وتنهد فى ارتياح .. انه يفكر فى مدى السعادة التى سيشعر بها اذا هو استقر فى هذه القرية القوزاقية الرائعة .. وان نظراته لتمتد الى الجبال .. الجبال المتوجة قممها بالثلوج .. ما أعظم الطبيعة واروعها .. ان حياته الجديدة قد بدات .. وانه لجد سعيد بها .

وسمع الغلمان ينشدون فجأة بأصوات جماعية :

انه ودع زوجته ..
وشرب كأسه الى آخرها .
ان الصياد ايروشكا ودع زوجته .
وباعها من اجل كأس من الخمر !.

ورأى اولنين الغلمان يسرعون نحو رجل عجوز ضخم الجسم يقترب فى الشارع وهم يرددون :

ان الصياد ايروشكا باع زوجته .
وكذلك باع خنجره ..
من اجل كأس من الخمر .

وكان العجوز ايروشكا عائدا من رحلة صيد وقد حمل بندقيته على كتفه ، وتدلت من حزامه بضع بطات برية .. وكان يرد على الغلمان وهو يلوح بذراعيه وينظر الى النوافذ على الجانبين ، قائلا بصوت ينم عن الاستياء برغم تظاهره بعدم الاهتمام :

ـ نعم ياأولاد .. كان عارا على ان ابيع زوجتى العجوز بكأس من الخمر .

ودهش أولنين لتصرفات الغلمان نحو الرجل العجوز ، ولكن دهشته كانت اعظم حين راى جسم الصياد الهرقلى ومايدل عليه من قوة وعزم ، ولم يسعه الا ان يناديه قائلا :

ـ ها ايها الصياد .. ايها القوزاقى .. تعال هنا .

وتوقف العجوز وتطلع الى النافذة ثم قال وهو يرفع قلنسوته من راسه الحليق :

ـ طاب مساؤك ياصديقى المحترم .

واقترب من النافذة واردف قائلا :

ـ انهم يسخرون من رجل عجوز ، ولكن هذا لايهم .. دعهم ليسعدوا قليلا بالعبث مع رجل عجوز .

وكان صوته قويا وهو يردف قائلا :

ـ هل انت القائد الجديد هنا ؟.

ـ لا اننى ضابط متطوع فقط . ولكن من اين جئت بهذا البط البرى ؟.

ـ هذه البطات الثلاث صدتها فى الغابة ... .. ولم اجد غيرها .

ثم اخذ منها بطتين وقدمهما الى اولنين قائلا :

ـ ارجو أن تقبل هذه الهدية منى .. ويبدو انك شاب تحب الصيد .. اليس كذلك ؟.

ـ بلى .. لقد صدت فى احدى المواقع الحربية اربع بطات بمفردى .

فقال الصياد بلهجة لا تخلو من التهكم :



ـ اربع بطات دفعة واحدة ؟ انك تحب الشراب كذلك ! ما رايك في خمرنا القوزاقية ؟.

ـ ماذا تظن بي ! انني طبعا احب الشراب .

ـ آها .. انك شاب رائع كما يبدو .. لسوف اكون صديقا وفيا لك .. ما رايك ؟!

ـ اذن . ادخل .. ولسوف نشرب معا بعض خمركم القوزاقية هذه .

ـ انني ارحب بهذا .. ولكن يجب اولا ان تقبل هذه الهدية !.

وكان واضحا من سمات وجه العجوز انه احب اولنين ، وانه ادرك بسرعة ان في مقدوره ان يظفر بين الحين والآخر ببضعة كؤوس من الخمر بلا مقابل .. ولهذا اصر على ان يقدم البطتين هدية لاولنين .

ودخل العجوز الكوخ ، وراح يتبادل الحديث مع اولنين حتى اقبل فانيوشا ونظر الى دهشة وامتعاض الى هذا الزائر الغريب ؛ ولكن اولنين بادره قائلا :

ـ اذهب يا فانيوشا واشتر لنا بعض الخمر من صاحبة البيت واحضرها الينا هنا .

وهنا قال الصياد العجوز لفانيوشا :

ـ دعهم يقدموا لك الخمر من الدن الذى فتحوه حديثا . ان لديهم احسن خمر في هذه المنطقة . ولكن لا تدفع لهم اكثر من ثلاثين كوبكا للقدح الواحد .. لان هذه المرأة العجوز يسرها جدا ان تخدع السكان الجدد وتبيعهم الخمر باسعار خيالية .

ثم همس لاولنين قائلا بعد انصراف فانيوشا :

ـ ان قومي هؤلاء حمقى جدا . انهم ينظرون اليكم ايها الروسيون على انكم لستم من بني البشر .. انكم في نظرهم اسوأ من التتر ! وهم يسمونكم بالروسيين الكفرة . اما انا ، فانى انظر اليك كجندى باسل .. وكرجل لك روح وجسد ومبادىء كأى رجل آخر . الست على حق ؟ ان قومي هنا يكرهونني لانني احب

الناس جميعا بلا استثناء .. انني رجل مرح . نعم .. انني ايروشكا الصياد يا صديقي العزيز .

ثم ربت بقوة على كتف اولنين .

***

كان فانيوشا في حالة معنوية رائعة بعد ان استقرت الامور ؛ وبعد أن نال قسطه من الراحة ، وبعد ان جعل حلاق الكتيبة يحلق له ذقنه . وقد اسرع بتنفيذ اوامر سيده فاخذ زجاجتين فارغتين ، وانطلق الى ربة البيت العجوز وقال لهـا بصـوت رقيق ليكتسب مودتها !

ـ طاب مساؤكم ايها الناس الطيبون . لقد ارسلني سيدي لاشترى منكم بعض النبيذ الاحمر .. فهل تكرموننا ايها النـاس الطيبون ؟.

ولم تقل المراة العجوز شيئا . وكانت ماريانكا واقفة امام مرآة تعصب راسها بمنديل ابيض . ونظرت الى فانيوشا دون ان تقول شيئا ايضا .

وعاد الشاب يقول وهو «يشخلل» بالنقود في جيبه :

ـ لسوف ندفع لكم بسخاء أيها الناس المحترمون . عاملونا بكرم وسوف نعاملكم بكرم اكثر ..

وقالت المراة العجوز في النهاية :

ـ ما هي الكمية التي تريدها ؟.

ـ ملء هاتين الزجاجتين .

فقالت العجوز أولتيكا لابنتها :

ـ اذهبي واعطه ما يريد يا حبيبتي .. اعطه من الدن الذى فتحناه اخيرا .

والتقطت ماريانكا مفاتيح المخزن ، وانصرفت يتبعها فانيوشا . ولما مرت بجوار نافـذة اولنين ، اشار هذا اليها وقال للصياد ايروشكا :

ـ من هذه الشابة الحسناء يا صديقي ؟.

وغمز ايروشكا بعينه ، ولكز اولنين بمرفقه ، ثم قال هامسا وهو يطل من النافذة :

ـ انتظر لحظة .

ثم رفع صوته وقال :

ـ ها ماريانكا يا حبيبتي .. الا تحبينني ؟ انني رجل باسل !.

فاستأنفت ماريانكا سيرها بعد ان القت عليه نظرة بطيئة جعلته يستطرد هاتفا :

ـ بادليني الحب وانا اجعلك اسعد فتاة في القرية .

ثم عاد يغمز لاولنين ويوجه اليه نظرة متسائلة ويردف قائلا :

ـ انني كلب .. انني وعل .. انني اسد ..

وانجاه همس قائلا :

ـ وهي ملكة متوجة على عرش الجمال .

وقال له اولنين :

ـ انها لكذلك .. دعها تأت الينا .

فهز ايروشكا راسه وقال :

ـ لا .. انها ستتزوج ليوكا .. وهو شاب قوزاقي باسل . انه الشجاع الذي قتل بمفرده تتريا من رجال العصابات في ذلك اليوم . دعها له وسوف ابحث لك عن فتاة لا تقل جمالا عنها ، فتاة ترتدي الحرير وتتزين بالفضة . وانا اذا قلت شيئا ، فاني اكون دائما عند قولي .

فرد اولنين عليه قائلا :

ـ اتتحدث هكذا وانت في مثل هذه السن . انها لخطيئة كبرى !.

فقال العجوز مستنكرا !!

ـ خطيئة كبرى ! اين الخطأ في هذا ؟ هل من الخطيئة ان انظر الى فتاة جميلة ، او احب فتاة جميلة ، او اخرج للنزهة مع فتاة جميلة ! من اين جئت ؟ لا يا ولدي العزيز انها ليست خطيئة . انها جهاد .. لقد خلقك الله .. والله خلق هذه الفتاة ايضا .. ان الله

هو خالق كل شيء ، ولهـذا فليس من الخطيئـة فى شيء ان ينظر الانسان الى الجمال .. الجمال الممثل فى زهرة او فى فتاة . لقد خلقها الله جميلة لكي تعيش سعيدة ولكي تسعد الناس . هذا هو رأيي يا ولدى العزيز .

وعبرت ماريانكا الفناء ، وذهبت الى مخزن النبيـذ ، وتمتمت بدعاء قصير قبل ان تبـدأ بملء الزجاجتين من الدن .. ووقف فانيوشا بالباب يرقبها وعلى شفتيه ابتسامة ..

ولما فرغت من ملء الزجاجتين بالنبيذ الأحمر ، سلمتهما الى فانيوشا قائلة حين أراد أن يدفع لها الثمن :

ـ اعط امي النقود .

وقال فانيوشا حين رآها مقطبة الجبين !

ـ وماذا يغضبك مني يا فتاتي الحسناء !.

وبدات ماريانكا تضحك وتقول :

ـ وماذا عنكم ايها الروسيون ؟ هل انتم اناس طيبون ؟

وتأملها فانيوشا برهة قبل ان يرد عليها .. واخيرا ابتسم وقال بلهجة مؤكدة :

ـ انني وسيدى من الناس الطيبين فعلا . والدليل على هذا اننا نتمتع بحب الناس لنا حيثما اقمنا .. ان سـيدى من طبقـة النبلاء فى موسكو .

وانصتت الفتاة باهتمام ، ثم قالت :

ـ وهل هو متزوج .. سيدك هذا ؟.

وغمز فانيوشا بعينه وقال :

ـ لا .. سيدى لم يتزوج بعد .. ان شبان الطبقة التى ينتمى اليها لا يتزوجون فى مثل هذه السـن المبكرة .

ـ يبدو انك بارع فى سرد الاقاصيص الخيالية ، حسـنا ، وهل هو قائد الجنود هنا ؟.

ـ ان سيدى ضابط متطوع فى الجيش القوزاقى ، ولم يصل بعد الى درجة الضباط العاملين ولكنه شخصية مرموقة هامة ، اكثر همة من قائد لواء . انه ليس معروفا من قائد فرقتنا هنا فقط ، وانما هو معروف من القيصر نفسه .

قال فانيوشا هذا بلهجة كبرياء ، ثم اردف قائلا :

ـ اننا لسنا من هؤلاء الجنود البائسين المرتزقين ، وانما نحن من اسرة عريقة . لقد كان لوالده الف عامل مسخر فى اراضيه الواسعة . وان سيدى ليتلقى فى كل ثلاثة اشهر الف روبل من ايراد ممتلكاته الواسعة . وهذا ما يجعلنا موضع الحب والتقدير اينما ذهبنا .

فقاطعته ماريانكا قائلة :

ـ هلم حضر .. لسوف اغلق المخزن .

وقدم فانيوشا لها جاجتين لاولنين قائلا :

ـ ما اجمل هذه العذراء !.

ثم ارسل ضحكة عالية وانصرف .

الفصل السابع

ليوكا وماريانكا

في خلال هذه الفترة كانت القرية قد بدأت تستيقظ كالمعتاد كل يوم في مثل هذه الساعة من سباتها قبيل الغروب لتستقبل العائدين من الحقول والغابات . واخذت قطعان الماشية والمركبات تتدفق من البساتين ، وتثير في جوها الغبار ، على حين ارتفعت اصوات النساء والفتيات وهن يشرفن على ادخال الماشية الى المرابط . وكانت الشمس قد اختفت تماما وراء قمم الجبال البعيدة ؛ ولم يبق منها في صفحة السماء الا بقايا باهتة حمراء . وهناك بعيدا .. فوق البساتين المغلفة ببوادر المساء ، بدأت بعض الانجم تلمع في خفوت وما لبث ضجيج العودة من الحقول ان خف ، وهدأت القرية وخرجت النساء والفتيات الى بوابات الاكواخ يتبادلن الاحاديث ويتسلين بقزقزة اللب ، وذلك بعد أن فرغن من حلب الابقار واعداد طعام العشاء .

وكانت احاديثهن في ذلك المساء تدور حول مصرع التتري على يد ليوكا ـ الخطاف ـ وكان احد العجائز قد راح يسرد عليهن كيف استطاع ليوكا بمفرده ان يقضي على التتري الجبار .

وقالت احدى النساء :

ـ لاشك أنه سينال مكافأة كبيرة .

ـ نعم .. بالتأكيد .. « ونيشان » ايضا .

ـ ان ذلك الجاويش موزيف حاول ان يخدعه فأخذ منه بندقية التترى رغما عنه . ولكن الضباط فى معسكر كيزلبار سمعوا بهذا الامر .

ـ انه مخلوق حقير ، ذلك الجاويش موزيف .

وقالت احدى الفتيات :

ـ انهم مولون ان ليوكا فى القرية الليلة .

ـ نعم .. انه يشرب الخمر مع نازار عند بامكا .

وكانت بامكا امراة قوقازية تدير حانة بغير ترخيص .

واردف المتحدث قائلا :

ـ وقد سمعت انهما شربا اربع زجاجات كاملة .

وقالت احدى النسوة :

ـ ان الخطاف يختطف الحظ كله ـ والخطاف اسم على مسمى الا انه فتى ممتاز حقا . لا شك فى هذا . حاد كالحجر . وطيب وسخى اليد . وكان والده كذلك . انه صورة كاملة منه .. وعندما قتل خرجت القرية كلها لتشيعه .. انظروا .. ها هم آتون لقد استطاع ابرجوشوف ان يفرض نفسه على الشابين .

واشارت المتحدثة الى ثلاثة رجال كانوا يقتربون نحوهن . وكان ليوكا ونازار وابرجوشوف يتقدمون نحو حلقة البنات والنساء بعد ان شربوا نسبة كبيرة من الفودكا . ومن ثم كانت وجوههم مضطرمة لاسيما وجه ابرجوشوف الذى كان يترنح ويضحك عاليا وبلكز نزار فى جانبيه قائلا للبنات

ـ من يغنى فى اغنية تسمعنا اياها ؟ هلممن يا بنات .. غنين تكريما للبطولة

وقالت النسوة :

ـ انكم لتنم لستمتعون بوقتكم . أليس كذلك .

وقالت احدى ربات البيوت :

ـ ان الغناء لا يكون الا فى الاعياد .. وانتم سكارى .. غنوا لانفسكم .

وضج ايرجوشوف بالضحك ، ولكن نازار قائلا :
ـ ابدا انت بالغناء يا نازار ، وسوف اشترك معك فان لى صوتا اعذب من صوت العندليب .
وقال نازار :
ـ ايتها الجميلات ، مالكن صامتات هكذا . لقد جئنا من المخفر من اجلكن .. وقد شربنا الآن تكريما للبوكا .
وكان ليوكا واقفا امام الفتيات منفرج الساقين ، محملا بنفسه، مائل القلنسوة ، يداعب خنجره المشدود الى الحزام باصابعه ؛ ويوزع ابتسامته على الجميلات . فلما اقبلت ماريانكا رفع قلنسوته تحية لها ، فاومات براسها ترد عليه تحيته ، وجلست على المصطبة مع البنات واخرجت من صدرها كيس اللب،وراحت تقرقزه وتلفظ القشر بلا اهتمام .
وبعد ان خيم الصمت برهة ، قالت احدى النساء :
ـ هل جئت لتقيم مدة طويلة يا ليوكا ؟
فرد ليوكا باكتئاب :
ـ حتى صباح الغد .
وقال القوزاقى العجوز الذى كان يروى حادث التترى :
ـ ليباركك الله يا ليوكا وليزد من حظك الحسن . انى فخور بك ، وقد كنت اقول هذا الآن .
وضحك ايرجوشوف وقال :
ـ وانا ايضا فخور به .. آه .. انظروا الى ضيوفنا .
ثم اشار الى احد الجنود المارين واردف قائلا
ـ ان فودكا الجيش من النوع الممتاز ، وانا احبها جدا .
وهنا قالت احدى النساء :
ـ لقد سكن فى بيتنا ثلاثة من هؤلاء الابالسة . وقد ذهب جدى الى شيخ القرية ليحتج ولكن الشيخ قال له انه لا يستطيع ان يفعل شيئا .
وقالت امراة اخرى :



ـ وهل اثاروا المتاعب لكم ؟ـ

وردت امراة ثالثة :

ـ يكفى انهم يبصقون بقايا مضغة التبغ على ارضية الغرف . ان من حقهم ان يدخنوا او يمضغوا التبغ خارج الاكواخ . ولكن ليس من حقهم ان يلوثوا بيوتنا بهذه الاشياء القذرة .

وقالت امراة اخرى :

ـ وهم لا يترددون عن سرقة اى شىء يقع فى ايديهم . لماذا لا يستضيف شيخ القرية بعضهم .. عليه اللعنة .

وقال ايرجوشوف :

ـ يبدو انك غير راضية عنهم !ـ

وقال نازار وهو يقلد ليوكا فى اختياله :

ـ والاسوا من هذا انهم يرغمون بناتنا الجميلات على خدمتهم واعداد الاسرة لهم .

وضج ايرجوشوف بالضحك وهو يعانق اقرب فتاة اليه :

ـ هذا حقيقى .

وصاحت الفتاة وهى تتخلص منه :

ـ ايها الحيوان الدميم .. دعنى والا اخبرت زوجتك العجوز .

ولكن ايرجوشوف هتف قائلا :

ـ اذهبى واخبريها . ولكن نازار لم يقل غير الحقيقة . لقد اصدر قائد المعسكر تعليمات مكتوبة بذلك . وان نازار ليحسن القراءة .

ثم شرع يعانق الفتاة التالية ، الا ان هذه صاحت به :

ـ ابعد يديك عنى ايها الخنزير العجوز .

ورفعت الفتاة ، اوستنكا الوردية الوجنتين ، يدها لتصفعه ! ولكن ايرجوشوف تراجع بسرعة وكاد ان يسقط وهو يقول ضاحكا :

ـ ها . يقولون ان الفتاة لا قوة لها .. ولكن ها هى ذى اوستنكا الحسناء تكاد تقتلنى .

وصاحت اوستنكا ضاحكة وهى تستدير :

ـ اتعد ايها الخنزير الاسود،ما الذي جاء بك من المخفر ؟ اذن فقد كنت نائما عندما حاول التترى ان يتسلل الى القرية ، كان من الممكن ان يعضى عليك . وليته فعل .

فضحك نازار وقال :

ـ اذن لبكيت عليه حتى تحمر عيناك .

ـ كنت سابكي عليه بقدر ما سوف ابكي عليك يوما .

فقال ابرحوشوف ضاحكا :

ـ اترى .. انها عذراء بلا قلب . ولكنها سوف تبكى يوما ، اليس كذلك يا نازار ؟ .

وفي خلال هذا كله ؛ وقف ليوكا صامتا وهو يحملق النظر الى ماريانكا التي شعرت بالحرج من تركيز نظراته عليها . واخيرا قال لها وهو يقترب منها :

حسنا يا ماريانكا . لقد سمعت انهم فرضوا عليكم احد الضباط للسكنى معكم .

ولم تجب ماريانكا فورا كعادتها ، وانما رفعت عينيها الى ليوكا الذي كان ينظر اليها باسما . واخيرا قالت :

ـ نعم .

وقالت احدى النساء العجائز :

ـ ويسكن لاسرة ماريانكا كوخين .. ولا بأس من ان يقيم احد الضباط وتابعه في كوخ منهما اما آل نوفشكين ، فقد سكن معهم احد الضباط الكبار . ويقال ان الكوخ امتلأ بحاجاته حتى لم يعد لهم مكان لاقامة الاسرة . فهل سمع احد بشيء كهذا ؟ ايليق ان تمتلىء القرية بهذه القطعان المغيرة ؟ ولكن .. ماذا يمكننا ان نفعل ؟ ولماذا جاءوا ؟ هذا ما اريد ان اعرفه .

وردت احدى البنات قائلة

ـ سمعت انهم سيقيمون جسرا فوق نهر تيريك .

وقال نازار وهو يقترب من اوستنكا

ـ وسمعت انهم سيحفرون حفرة كبيرة يدفنون فيها البنات اللاتي لا يبادلن الشبان الحب .

ثم اسرع مبتعدا قبل ان تناله صفعة من يد أوستنكا ، مما جعل الجميع ينفجرون بالضحك وتجاوز ابرجوشوف ماريانكا ، التي كان عليها الدور ، وعانق امرأة عجوزا . ومن ثم قال له بازار :

- لماذا لم تقبل ماريانكا ؟ يجب أن تأخذهن بالدور

فصاح ابرجوشوف وهو غير حافل بمقاومة المرأة العجوز له :

- لا .. ان هذه العجوز احلى واعذب .

وهتفت العجوز ضاحكة

- اقبلوني .. انه سيكتم انفاسي .

واقترب ليوكا من ماريانكا وقال لها :

- واين اسكنتم الضابط ؟ .

فابتسمت ماريانكا وقالت بعد برهة صمت :

- في الكوخ الجديد .

- اشاب هو ام عجوز ؟ .

قال ذلك وهو يجلس بجوارها . وردت هي قائلة :

- ومن اين لي ان اعرف ؟ انني لم اره جيدا .. انه الآن جالس يشرب النبيذ مع الصياد العجوز ابروشكا . وكل ما اعرف عنه انه احمر الشعر ، وان معه الشيء الكثير من الامتعة .

فازداد ليوكا اقترابا منها وهو لا يحول نظراته عن عينيها ثم قال بصوت خافت :

- انني سعيد بهذه الاجازة الصغيرة التي ظفرت بها من المخفر .

وابتسمت ماريانكا خفيفا وقالت :

- والى متى ستبقى ؟.

- حتى الصباح .

ثم مد يده وقال :

- اعطني قليلا من اللب .

واتسعت الابتسامة على شفتي ماريانكا وهي تقدم اليه كيس اللب قائلة

لا تأخذ الكمية كلها .

وهمس ليوكا بصوت خافت وهو يتناول بعض اللب :

ـ كنت اشعر بالوحشة وانا بعيد عنك .. اقسم لك على هذا.
ثم ازداد اقترابا منها وهمس فى اذنها وهو لا يزال يبتسم فى في عينيها :
ـ هل ستأتين الى كوخى الليلة ؟.
فقالت بصوت مسموع وهى تتراجع عنه :
ـ لا .. لن آتى .. مستحيل .
فعاد يهمس قائلا :
ـ صدقينى .. اننى اريد ان اخبرك بشيء .. ارجوك ان تاتى يا ماريانكا .
وهزت ماريانكا راسها وان ظلت باسمة .

وفى تلك اللحظة سمعت ماريانكا اخاها الصغير يهتف قائلا وهو يسرع نحو الجمع :
ـ اختى ماريانكا .. ان امى تريدك ، لقد حان وقت العشاء .
فقالت له ماريانكا :
ـ سوف آتى حالا .. اذهب انت يا حبيبى الصغير وسوف الحق بك .
ونهض ليوكا ورفع قلنسوته قائلا :
ـ اعتقد انه قد آن لى ان اعود الى بيتى ايضا . لقد تأخر الوقت .
وارسل اليها ابتسامة اخيرة ، ثم اختفى فى المنعطف وكان الظلام قد انتشر على القرية ، لا يخفف منه الا نور النجوم المتالقة فى سماء صافية . وبينما كان نازار باقيا مع النساء والبنات يضاحكهن ويداعبهن ، كان ليوكا يتسلل مسرعا ، لا الى بيته ، وانما الى اقرب مكان من بيت ماريانكا وعلى مقربة من السياج ، جلس وهو يقول لنفسه :

ـ انها تتعالى على ! حسنا ! لسوف اعرف كيف اروضها .

ولما سمع وقع قدميها وهى تقترب ، وثب واقفا واعترض طريقها ، فتراجعت فى فزع ، ثم اطمأنت حين تبينت انه هو ؛ وارسلت ضحكة عالية وقالت :

ـ لقد افزعتني ! اذن فانت لم تذهب الى بيتك ! ..

ووضع ليوكا احدى ذراعيه حول عنق الفتـــاة ، ورفع باليــد الاخرى وجهها نحوه وقال بصوت مرتعد :

ـ هناك شيء اريد ان اخبرك به ... صدقيني ...

وقاطعته ماريانكا قائلة :

ـ ماذا تريد ان تقول ؟ ان امي تنتظـرني ... ويحســن بك ان تذهب الى حبيبتك .

وتخلصت منه فجاة ، واسرعت نحو سياج كوخها ، ولكنه لحق بها ، فاستدارت اليه وقالت وهي تضحك مرة اخرى :

ـ حسنا .. ماذا تريد ان تخبرني ايها الخطاف .

ـ كفى عن السخرية بي يا ماريانكا .. ارجوك . ماذا لو ان لي حبيبة ؟ لياخذها الشيطان افتحي لي قلبك وانا احبك اشد الحب . لسوف افعل من اجلك كل شيء . اسمعي ..

ثم شخلل ببعض النقود الفضية في جيبه واردف قائلا :

ـ اننا نســتطيع الآن ان نبني لنـــا بيتـــا . وان الناس فرحا يستمتعون بحياتهم .. فلماذا لا نفعل مثلهم . لماذا لا تســعدينني يا ماريانكا ؟ .

ووقفت ماريانكا صامتة تطرقع باصـــابعها . وجمع ليــوكا قبضتيه ، وقال بصوت حاسم :

ـ انني ضقت ذرعا بالانتظار ..الى متى انتظر .؟ الست احبك بما فيه الكفاية ؟.

ثم اردف قائلا وهو يمسك يديها بغضب واهتياج !

ـ انك تستطيعين ان تفعلي بي ما تشائين .

ولم تفقد ماريانكا زمام اعصابها ، وانمــا قالت بصوت هادئ واثق :

ـ لا داعي لهذه الثورة يا ليوكا ... انصت الي ..

ودفعت به بعيداً عنهـا قليلا وان تركت يديها بين يديه ، ثم قالت :

ـ انني حقا مجرد فتاة لا حول لي ولا قوة . ولكن انصت الى .. انني لا استطيع ان افرد شيئا . ولـكن اذا كنت تحبنى حقـا فاترك يدى .. انى استطيع ان اتحدث دون ان تمسك بى هكذا . انني على استعداد لان اتزوجك . ولكنك لن تستطيع ان تنال منى شيئا قبل الزواج .

فقال ليوكا وقد هدات ثائرته وشاع الابتـسام فى وجهه،والرقة فى صوته :

ـ ماذا تعنين بالزواج ! ان الزواج ليس فى ايدينا .. ولكننى اريد ان تحبيني.. اريد أن اتأكد من حبك أولا يا صغيرتى ماريانكا.
فاقتربت ماريانكا منه وقالت وهى تقبله بحرارة :
ـ يا فتاى العزيز .

ثم تخلصت منه بسرعة ، واندفعت الى بوابة كوخهـا دون ان تستدير اليه ، ورغم كل محاولاته لاستبقائها برهة أخرى ، فانهـا أصرت على الافتراق وهى تهمس له قائلة :

ـ هلم ابتعد والا رآنا احد .. لعل ذلك الساكن اللعين الجديد يتجول الآن فى الفناء .
وقال ليوكا لنفسـه وهو يتراجع :

ـ آه يا ابنـة المدرس ! انك تريدين الزواج منى ، حسنا .. ولـكن عليك اولا ان تحبيني ولسوف نرى .

والتقى بنازار فى حانة يامكا . وبعد أن شرب معه قليلا ذهب الى حبيبته دونايكا ليقضى معها الليل رغم ما سمعه عن خيانتها له.

الفصل الثامن

حديث عن ماريانكا

كان الصياد العجوز ابروشكا يحب ليوكا ويرى فيه لمحات من شبابه الدابر . ومن ثم نهض من رقدته على ظهر الفرن فى كوخه الصغير حين سمع صوت ليوكا يناديه من الخارج ، واسرع يستقبله قائلا

ـ اه يا عزيزى ليوكا .. هل جئت لتزور صديقك العجوز ابروشكا . ادخل يا ولدى .. ادخل .

وقال له وهو يستقبله داخل الكوخ :

ـ هل تنوى العودة الى المخفر يا ليوكا ؟!

فقال ليوكا وهو يضع امام ابروشكا زجاجة من النبيذ :

ـ لقد جئت اليك بالنبيذ الذى وعدتك اياه بعد مصرع التترى .

ـ آه .. بارك الله فيك يا ولدى .. ما اكرمك .

ثم صب لنفسه كاسا ، ولليوكا اخرى ، وقال :

ـ فى صحتك يا ولدى ليوكا .. وليزدك الله نجاحا وشهرة .

وشكره ليوكا .. واسرع العجوز ووضع بعض السمك المجفف على مائدة قديمة ، وقال وهو يدعو ليوكا الى الطعام :

ـ اترىٰ . . ان لدى كفايتى من الطعام دائما . . حمدا لله . .
والآن ماذا عن الجاويش موريف ؟.
فلما اخبره ليوكا بامر البندقية التى اخذها منه الجاويش قال له ايروشكا :
ـ دعك من هذه البندقية . . انك لو لم تعطها اياه ، ما ظفرت بالمكافاة .
ـ ولكنهم يقولون انها ستكون مكافاة بسيطة لانى حديث عهد بالخدمة ، ولم التحق بعد بكتيبة الفرسان . اما البندقيه فانها رائعة . . ليس لها مثيل لدينا . . انها مصنوعة فى القرم . .
وتساوى ثمانية روبلات على الاقل .

فقال العجوز بلهجة الرجل المجرب !
ـ دع الامر يقف عند هذا الحد . لقد اشتبكت فى نزاع من هذا النوع وانا شاب مثلك . كان رئيسى الضابط يريد منى ان اهدى اليه جوادى الاصيل ليرقينى الى رتبة معلم . . ولكننى رفضت ، وهكذا ضاعت كل فرصة للترقية بعد ذلك .
فقال ليوكا وهو يومىء براسه :

ـ نعم . . نعم يا صديقى العجوز . . ولكن على ان اشترى جوادا ، وثمن الجواد ـ اذا حصلت عليه عبر النهر ـ لا يقل عن خمسين روبلا ، ووالدتى لم تبع محصولنا من النبيذ بعد .
ـ آها . . ان صديقك العجوز ايروشكا لم يكن يهتم بهذه التفاهات عندما كان فى مثل سنك . . كنت اذهب واسرق قطعانا كاملة من الجياد من هضاب نوجاى واعبر بها نهر تيريك . . وكنا احيانا نبيع الجواد بعباءة او برحاجتين من الفودكا .
بمثل هذا السعر البخس كنتم تبيعون الجواد ! .

ـ نعم . . انك لا تزال غرا يا صديقى الصغير . . اننا كنا نسرق الجياد حتى لا نتعلم البخل . اما انتم يا فتيان اليوم ، فلعل الواحد منكم لم ير فى حياته قطيعا من الجياد . لماذا لا تقول شيئا ؟.
ـ وماذا تريدنى اقول يا ايروشكا . . اننا لسنا من جيل واحد
ـ انك احمق يا ليوكا . . لاشك فى ذلك . .

ثم اردف قائلا وهو يقلد ليوكا ساخرا :

ـ انت لسنا من جيل واحد !! حسنا .. بل اننا في الواقع نختلف جدا . فانا عندما كنت في مثل سنك،كنت قوزاقيا محتلما.

ـ ماذا كنت يا ابروشكا !!.

فهز ابروشكا راسه وقال :

ـ كان الصياد ابروشكا رجلا اجتماعيا .. لم يكن يبخل على احد بشيء ولهذا كان محبوبا من الجميع ، وكان اذا جاء احد اصدقائي لزيارتي قدمت له الطعام والشراب وجعلته ينام في فراشي . واذا ذهبت لزيارته حملت هدية له . هكذا ينبغي أن تكون الحياة ، وليس كما تفعلون الآن . ان التسلية الوحيدة لكم ايها الفتيان هي قرقرة اللب والعبث مع البنات .

فاطرق ليوكا براسه وقال :

ـ نعم .. هذه هي الحقيقة .

ـ اذا اردت ان تعيش رجلا ، فكن شجاعا . ان الرجل العادى اذا اراد جوادا اشتراه .. اما الرجل الشجاع ، اذا اراد جوادا فانه يظفر به من هضاب نوجاى .

وساد الصمت برهة قطعه ليوكا بقوله :

ـ نعم .. نعم .. ان الحياة في المخفر مملة وكذلك في القرية. وليس هنا او هناك مكان يستطيع فيه المرء ان يعرب عن شجاعته . ان كل زملائي خاملون . اليك نازار مثلا . لقد ذهبت معه ذاك اليوم الى قرية نترية ، واراد شيخها جيرى خان ان يصحب احدا للاغارة على هضبة نوجاى والظفر ببعض الجياد ، ولكن نازار رفض ولم استطع ان اذهب بمفردى .

ـ وماذا عنى ، انني لم انته بعد .. اعطنى جوادا وانا اغير على هضاب نوجاى في لمح البصر .

ـ ما جدوى الحديث على هذا النحو الفارغ،يحسن ان تخبرنى ماذا ينبغى ان افعل مع جيرى خان ! لقد طلب مني ان اسرق الجياد من هضاب نوجاى الى شاطيء تيريك وبعد ذلك يستطيع ان

يتصرف فيها ولو كانت عشرين جوادا . ولكنه رجل لترى .. لهل أستطيع ان اثق به ؟.

ـ يمكنك ان تثق في جيري خان.. انه رجل شريف هو وجميع قومه . وقد كان والده صديقا حميما لي . ولكن استمع الى نصيحتي ، دعه يقسم على الاخلاص لك . ويمكنك ان تطمئن اليه بعد ذلك. واذا خرجت للاغارة معه ، فخذ مسدسك معك ولاسيما عندما تبدأ في تقسيم الاسلاب . لقد كدت ان اقتل ذات مرة على يد لترى عندما طالبت بعشرة روبلات عن كل جواد . ان الثقة لا بأس بها ، ولكن عليك ان تجعل مسدسك في متناول يدك دائما.

وصمت الصياد العجوز برهة ، ثم قال فجأة :

ـ ولكن نصيحتي الاساسية هي عدم الذهاب الى نوجاي .. نعم يا ليوكا ، لا تذهب الى نوجاي مهما كان السبب .

ـ لماذا ؟!.

ـ لأن الظروف قد تغيرت . الا ترى كل هؤلاء الجنود الروسيين الذين يملئون المنطقة ، انك اذا ذهبت للاغارة على نوجاي فسوف تعرض نفسك للعقاب.. لسوف توضع في السجن صدقني يا ليوكا ، دعك من نوجاي وخيولها .. ان الظروف تغيرت ..

واستعد الصياد العجوز لسرد احدى اقاصيص مغامراته التي لا حصر لها ولكن ليوكا قال وهو يرى ضوء الفجر يتسلل الى النافذة :

ـ لقد اسفر الصباح يا صديقي العجوز ؛ ويجب ان اعود الى المخفر ، ارجو ان اراك يوما آخر .

ـ ليحفظك الله يا ليوكا .. ولسوف اتصرف انا ايضا . لقد وعدت الضابط اولنين بمصاحبته الى رحلة صيد اليوم .. انه شاب لطيف .

***

وفيما كان ليوكا يسير في طريقه الى المخفر ؛ صفر الصياد العجوز ايروشكا لكلابه ومضى الى مسكن اولنين حيث وجد الشاب

لا يزال يغط في نومه ، وحتى فانيوشا كان راقدا في فراشه رغم يقظته ، يتلفت حوله ، ليدرك اين هو ، قبل ان ينهض .

وفتح ايروشكا الباب وهو في كامل أهبته للصيد وصاح قائلا :

ـ الى السلاح ايها الكسالى ! لقد هجم علينا التتر .. فانيوشا ! ضع ابريق الشاي على الموقد واسرع ، ما هذا النوم ، ان البنات قد استيقظن .. انظر الى تلك السائرة نحو النهر لتستقى آ .

واستيقظ اولتين ووثب واقفا من الفراش وهو يشعر بالانتعاش والبهجة على صوت ايروشكا الذي كان يستطرد قائلا :

ـ خطوة سريعة يا فانيوشا ، اهكذا يستعد الناس للصيد ؟ ان الناس قد تناولوا افطارهم وانت لا تزال نائما ؟.

وقال اولتين ضاحكا :

ـ انني اعترف بالذنب فلا جدوى من الانكار .. جهز البنادق والبارود وحقائب الصيد يا فانيوشا .

وصاح ايروشكا قائلا :

ـ سوف اسامحك هذه المرة ، ولكن اذا تكرر هذا منك ؟ فسوف احرمك لمن زجاجتين من النبيذ الأحمر . ان الغزلان تهرب الى مخابئها بمجرد ظهور الشمس .

فقال اولتين وهو يتذكر احاديث العجوز في الليلة السابقة :

ـ وحتى اذا وجدنا غزالا فسوف يكون أبرع منا واذكى. انك لن تستطيع ان تخدع الغزال في ضوء النهار !.

ـ آه . اضحك ما شئت ، ولكن ينبغي أن تصيد واحدا منها قبل ان تضحك . ها هو ذا صاحب البيت مقبل علينا لزيارتك كما يبدو .. انه يرتدي ملابسه الرسمية لكي يجعلك تعرف انه برتبة ضابط .. آه .. ما أشد غرور هؤلاء الناس .

واسرع فانيوشا من الفناء يعلن وصول صاحب البيت ، وسرعان ما اقبل والد ماريانكا في ملابسه العسكرية الرسمية ؛ وكان وجهه ينم على انه قوزاقي « مثقف » ينحدر من اصل كريم وكان في نحو الخمسين من العمر ، ملوح الوجه ، قوى الصوت ؛ يتحدث بنفس الطريقة التي يتحدث بها الصياد ايروشكا .

واستقبله اولتين مرحبا ، والتمس منه ان يجلس ، على حين قال ايروشكا وهو ينحنى بطريقة مضحكة .

ـ طاب صباحك يا سيد ايليافاسيلفتش .

فرد الضيف قائلا وهو يومىء برأسه فى تحية عابرة :

ـ طاب صباحك يا ايروشكا .. لقد جئت فى ساعة مبكرة على ما يبدو .

ثم اردف قائلا لاولتين وهو يشير الى الصياد العجوز :

ـ هذا هو النمرود العصرى .. انه ابرع صياد فى هذه البلاد ، واسبق الرجال الى ركوب المخاطر .. ولاشك انك ستبتهج بصحبته .

ووقف ايروشكا مطرقا برأسه لا يدرى ماذا يقول ازاء هذا الاطراء ولكنه كان يفكر فى هذه العبارة « النمرود العصرى » ويحاول ان يفهم دلالتها !.

وقال اولتين :

ـ نعم .. لقد كنا على وشك الخروج للصيد معا .

ـ حسنا .. حسنا .. ولكننى جئت لاتحدث معك حديثا لن يستغرق الا بضع دقائق .

ـ اننى رهن اشارتك .

ـ الواضح انك واحد من السادة الكبراء ، وبما اننى برتبة ضابط بالجيش ، فمعنى هذا اننا سنتفاهم على كل شىء .

ثم توقف لحظة قبل ان يستطرد قائلا وهو يلقى نظرة باسمة على الصياد العجوز وعلى اولتين :

ـ ان زوجتى العجوز لم تحسن الاتفاق معك .. فالواقع ان هذا الكوخ كان مؤجرا فى يوم ما لاحد الضباط بستة روبلات فى الشهر ، غير مربط الجياد .. ولما كانت زوجتى العجوز لا تعرف شيئا فى شئون التأجير فاننى ارى ان الاتفاق الذى تم بينكما لا يعتبر قائما ..

ـ ماذا تعنى ؟!.

ـ الا اذا وافقت على ان تكون الايجار الشهرى لهذا الكوخ ستة روبلات .

ووافق اولنين فورا .. وشرب الجميع الشاى ، ثم نهض الضيف وانحنى قائلا لاولنين قبل ان ينصرف :

ـ ارجو ان تتكرم بزيارتنا وتتناول شيئا من نبيذنا على حسب التقاليد المتبعة فى هذه البلاد .

ـ سوف اتشرف بزيارتكم فى اقرب فرصة .

وبعد انصراف ايليا فاسيلفتش ، والد ماريانكا قال ابروشكا العجوز لاولنين :

ـ ياله من وغد ! هل ستعطيه حقا ستة روبلات اجرا شهريا لهذا الكوخ ! من ذا سمع بشىء من هذا من قبل ! ان اجر احسن اكوخ فى القرية لا يزيد على روبلين فى الشهر بل اننى مستعد أن أؤجر لكم كوخى بثلاثة روبلات .

فقال اولنين :

ـ لا . . اننى افضل البقاء هنا .

ـ ستة روبلات ! يبدو أن لديك مالا لاحصر له . . ها يافانيوشا احضر بعض النبيذ اننى ظمآن أيها اللعين .

وبعد ان شرب كل منهما جرعة نبيذ للاستعانة بها على مشقة الطريق ، انطلقا بعد السابعة بقليل . وعند بوابة القرية التقيا بمركبة يجرها ثوران ، وتجلس فى مقعد القيادة ماريانكا وقد عصبت راسها بمنديل ابيض يكاد يصل الى عينيها ، وما ان رآها ابروشكا حتى هتف قائلا :

ـ آه . . هاهى ذى حبيبتى ماريانكا .

ورفعت ماريانكا السوط مهددة وهى تنظر اليه والى اولنين بعينيها الجميلتين الضاحكتين .

ثم قالت :

ـ حذار ان تقترب والا . .

ثم فرقعت بالسوط للثورين ، وانطلقت فى الطريق الزراعى بين الحقول وسار فى الطريق نفسه اولنين وايروشكا الذى استطرد فى الحديث عن والد ماريانكا قائلا

ـ ذلك اللص . . سنة روبلات ‍! . . ياله من انتهازى لعين .

ـ ولكن لماذا انت ثائر عليه يا ايروشكا ؟ .

ـ لانه بخيل . . وانا لا اطيق الرجل البخيل . ان الانسان لن ياخذ معه المال بعد الموت ، فلماذا يحرم نفسه اطايب الحياة بالبخل واكتناز المال . ان لديه الآن كوخين وقد ظفر من ابن عم له ببستان ثان من الفاكهة والكروم ، وهو بارع فى كتابة الدعاوى والشكايات لاهل القرية . بل ان اهالى القرى الاخرى يأتون اليه ليكتب لهم شكاياتهم . فلماذا يدخر المال . . ولمن ؟ . . ان له ابنة واحدة وابنا واحدا . . والابنة سوف تتزوج قريبا فلماذا كل هذا البخل والتهالك على جمع المال ! . .

فقال اولنين :

ـ آه . . لعله يدخر المال لزواج ابنته .

ـ ان زواج الفتاة لن يكلفه مالا . . انها جميلة ومعظم شبان القرية يتمنون زواجها . ولكن هذا الوغد يريد ان يزوجها من رجل ثرى . انه يريد ان يظفر من ورائها بمبلغ كبير . ان فى هذه القرية شابا قوزاقيا يدعى ليوكا . وهو جار لنا ، وابن اخ لى . انه شاب بارع شجاع وهو الشاب الذى قتل تتريا بالامس . . حسنا انه يطلب يد الفتاة منذ مدة طويلة ولكن والدها يراوغه ويبتكر الاعذار قائلا انها لاتزال صغيرة وما الى هذا . ولكننى اعرف ماذا يريد . . انه يريد ان يركع الشبان امامه . . ما احقره . ولكن ليوكا سوف يظفر بها فى النهاية ، لانه افضل شاب قوزاقى فى القرية . . وسوف ينال وساما على قتله التترى . .

فقال اولنين :

ولكن ما رايك انني رايت هذه الفتاة امس تقبل قوزاقيا في اثناء سيري في الفناء ليلة امس .

فصاح ابروشكا قائلا وهو يتوقف فجاة :

ـ انك لست جادا !.

ـ اقسم لك على هذا ؟.

فكر ابروشكا ثم قال :

ـ ان النساء شياطين .. ولكن اى قوزاقي هذا ؟.

ـ لم استطع ان اراه جيدا في الظلام .

ـ مالون قلنسوته .. هل كانت بيضاء ؟.

ـ نعم .

ـ وسترته .. هل كان يرتدى سترة حمراء ؟.

ـ نعم .

ـ وهل كان في مثل طولك ؟.

ـ نعم .. او اطول قليلا .

فانفجر الصياد العجوز ضاحكا وقال :

ـ انه هو .. صديقى الشاب لبوكا .. انني احبه كانه ابني .

وصمت اولنين برهة .. ثم قال :

ـ كيف سيكون صيدنا !.

ـ سوف نتبع الكلب . وعندما نرى بطة فوق شجرة ، يمكنك ان تطلق النار عليها .

وبعد برهة صمت اخرى قال اولنين :

ـ لو انك في مكاني ، فهل كنت تغازل ماريانكا .

ـ سوف اخبرك بما يجب ان تفعل هذه الليلة . ولكن عليك الآن ان تراقب الكلب .

واشار الى كلبه المحبوب ليام .

وبعد ان صارا مسافة اخرى فى صمت ، استأنف اولئين الحديث عن ماريانكا قائلا :

ـ زدنى حديثا عن ماريانكا .. اذن فهى تتبادل الحب مع ليوكا !.

فهمس الصياد العجوز قائلا :

ـ سكوتا .. انصت جيدا .. اننا الآن سندخل الغابة .

لم تقدم فى ممر ضيق ، وما لبث الاثنان ان وجدا نفسيهما داخل غابة كثيفة الشجر .. وكلما سمع ايروشكا حفيفا ، شرع بندقيته ، وفجاة عاد يقول بصوت هامس غاضب :

ـ لاتحدث صوتا فى مسيرك ايها الشاب .. خفف الخطوة بقدر ما تستطيع لاننا الآن فى جوف الغابة .

***

الفصل التاسع

الصيد

وهمس الصياد العجوز فجاة وهو يجذب قلنسوته ليخفي وجهه :

ـ لقد حطت بطة على غصن شجرة قريب .. اخف وجهك بقبعتك ايها الشاب .. واستعد ان البط يخاف من وجوه الرجال .

وكان اولنين يسير وراء ايروشكا .. وما ان سمع تحذيره حتى فوجىء بدوى طلقة نارية ارسلها الصياد العجوز من بندقيته .. واذا بذكر بط يتهاوى قتيلا على مسافة غير بعيدة ، واذا الكلب ليا يسرع ليلتقطه . وفيما كان اولنين يقترب ، اذا به يرى ذكر بط آخر يحاول الهرب .. فصوب اليه بندقيته واطلقها عليه .. واصا في مقتل .

وصاح الرجل العجوز ضاحكا :

ـ مرحى .. مرحى .

والتقط البطتين في ابتهاج ، وسار الاثنان سعيدين ، وراحا يتبادلان الحديث بمودة ، وقد اغتبط اولنين بعبارات المدح التي كان يسمعها من الصياد العجوز .

وفي منعطف داخل الغابة .. قال أبروشكا!

ـ انتظر لحظة .. لسوف نمضي الآن في هذا الممر ، لأنني رأيت منذ يومين آثار بعض الظباء .

وصارا في ممر كثيف الشجر ، وبعد مسيرة مائة ياردة . وصلا الى ساحة ذات عشب وماء ، وشاهد أولنين . الذى كان يسير في المؤخرة ـ الصياد العجوز وهو ينحني على الارض ويفحص بعض الآثار ، ثم يشير الى آثار اقدام بشرية ويقول!

ـ اترى !.

فقال اولنين بصوت خافت !

ـنعم .. انها آثار اقدام بشرية .

وخطر بباله ان الآثار قد تكون لأقدام بعض التتر المختبئين في الغابة استعدادا للاغارة على القرية ، ومن ثم بدأت المخاوف تنوشه ولكنه فوجيء بابروشكا يقول له !

ـ انها اقدامي انا .. وهي تكاد تختفي تحت آثار حوافر بعض الحيوانات البرية .. وهذا يعني ان هذه الحيوانات قد مرت من هنا منذ عهد قريب .

وفجأة سمعا صوت حيوان ينطلق من مخبئه ويشق النبات الكثيف فيطريقه ، وسرعان ما اعدا بندقيتيهما للانطلاق . ولكنهما لم يريا شيئا ، وانما سمعا فقط دقدقة حوافر حيوان يندفع بعيدا منهما .

وقال الصياد العجوز وهو يكشر عن انيابه في غيظ !

ـ انه وعل كبير القرون .. لاشك انه كان واقفا في مخبأ قريب الكيف فغفلنا عنه .. باللفرصة الضائعة .. ما اشد حماقتي .

وبدأت الشمس تميل نحو الغروب ، عندما اخذ اولنين مع الصياد العجوز فيالعودة الىالكوخ ، وبرغم ماكان يشعر به اولنين من تعب وجوع ، فانه كان مبتهجا سعيد النفس وهو يرى مرة

آخرى الجبال البعيدة ؟ وماريانكا تروح وتغدو فى الفناء ، والصياد ايروشكا لايكف عن سرد مغامراته ايام الشباب .

***

وفى صباح اليوم التالى ، ذهب اولنين الى الغابة ، للصيد بمفرده .. لم يشا ان يصحب معه الصياد العجوز . وسار فورا الى البقعة التى هرب منها الوعل فى اليوم السابق ولكنه لم يجد له اثرا .. فانعطف الى مكان آخر فى قلب الغابة ، وسرعان ما رأى عددا من البط يحاول الطيران بعيدا ، فاطلق عليه بندقيته بسرعة وفى طلقات متوالية مما جعله يستطيع اسقاط خمس بطات .. وادرك ان ايروشكا العجوز ابى أن يسير به الى هذا المكان الزاخر بالبط ، حتى يحتفظ بسره لنفسه .

وعند الظهيرة ، كان التعب قد حل به ، فالتقط بطاته الخمس وشرع يسير فى طريق العودة .. ولكن الساعات اخذت تمر وهو لايجد منفذا يخرج به من الغابة . وادرك انه ضل الطريق .. وان من الممكن ان يقضى بضعة ايام وليال وهو سجين داخل غابة لايعرف معالمها ومع كل خطوة كانت مخاوفه تزداد .. ونسى تعبه .. وراح يحث الخطو وهو يحاول ان يعرف طريقه من اتجاه الضوء ولكن عبثا كانت محاولاته لقد خيل اليه ان كل خطوة يخطوها تمضى به الى قلب الغابة بدلا من خارجها .. وبدا الظلام يكسو الجو .. وازداد احساسا بالضياع .. وراح يتمتم بالدعاء ؛ ولما اظلم الجو ايقن انه سوف يقضى الليل بمفرده داخل غابة زاخرة بالوحوش والحيوانات البرية . ومن يدرى .. فلعله يلقى حتفه فى هذا المكان الموحش .. ولعل حيوانا بريا يلتهم جسده ولايترك الا عظامه لكى تنمو فوقها النباتات . ولكنه ابى أن يستسلم لليأس ، فراح يمضى على غير هدى والامل يراوده فى انه سوف يجد نفسه فجأة خارج الغابة فى طريق معروف .

ولحقق الامل فى لحظة واذا هو ، فى ظلام الليل ، سمع اصوات جماعة من جنود القوزاق يتحدثون ويضحكون فى مكان

القريب . واسرع نحو مصدر الاصوات .. ومالبث ان راى مياه نهر تيربك تلمع فى شفق المساء ، والهضاب على الضفة الاخرى تمتد الى الافق البعيد وبعد مسيرة خطوات اخرى . راى برج المراقبة فى المخفر يرتفع امامه ، وشاهد جوادا يرعى العشب فى مكان قريب منه ، كما لمح عددا من الجنود واقفين يتحدثون ، وبينهم لبوكا بقامته الطويلة ، يتبادل معهم الحديث والضحكات .

وخامر اولنين احساس عميق بالسعادة .. لقد ادرك انه وصل الى مخفر نيزن ـ برونسك على نهر تيربك فى مواجهة القرى التترية على الضفة الاخرى من النهر .

وتنهد فى ارتياح عندما وصل الى احد الاكواخ المخصصة للاستراحة فى المخفر .. ورد الجنود عليه التحية بلا اهتمام ، لانه كان اولا يدخن سيجارة ، وقد اعتاد القوزاق ان يحتقروا مدخنى السجائر ، ولانهم كانوا من ناحية اخرى مشغولين بامور اكثر اهمية .

كانوا فى تلك الليلة يستعدون لاستقبال جماعة من التتر الذين قرروا الحضور لافتداء جثة مواطنهم الذى قتل بيد لبوكا . ومن ثم كان الجنود القوزاق فى حالة انتظار وصول قائد الحامية من القرية ليقوم بالمفاوضات مع جماعة التتر .

ولم تمض غير لحظات حتى وصل الوفد التترى برياسة شقيق القتيل ، وكان رجلا قوى البأس ، قصير الشعر ، مصبوغ اللحية بالحناء شديد الشبه باخيه القتيل ، وبعد ان تبادل التحية القصيرة مع حراس المخفر ، جلس فى هدوء دون ان يتنازل بالنظر الى احد او حتى الى جثة اخيه . وانما ظل جالسا يدخن غليونه القصير .. ويبصق على الارض ، ويدمدم بكلمات غامضة كان زملاؤه ينصتون اليها باهتمام . وكان الواضح انه واحد من الذين التقوا فى معارك كثيرة مع الجنود الروسيين ، ومن ثم لم يكن فيهم ما يثير اهتمامه او يسترعى نظره .

وكاد اولنين ان يمضى ويلقى نظرة على جثة التترى القتيل ، ولكن شقيقه دمدم بعبارات حادة وقد ارتسم الاحتقار الممزوج بالغضب

على وجهه ؛ مما جعل احد الحراس يسرع ويلقى بطرف الغطاء على وجه الجثة ، وتأثر أولنين بهيبة التترى الباسل ، وحاول ان يتحدث معه ليسأله من ابن جاء ، ولكن الرجل نظر اليه فى احتقار ثم بصق على الارض ، ولم يبتس أولنين ، وانما استدار الى المترجم الذى جاء مع الوفد ليقوم بترجمة الاحاديث بين التتر والقوزاق ، وراح يتحدث اليه بعد ان قدم اليه بضع سجائر .

وقال المترجم التترى باللغة الروسية الركيكة .

ـ انهم خمسة اخوة . وهذا القتيل هو ثالث ضحية على ايدى الروسيين من هؤلاء الاخوة ولم يبق الا اخوان فقط .

ثم اشار الى التترى الباسل واردف قائلا :

ـ ان هذا الاخ شجاع .. شجاع جدا ، له قلب أسد .. وقد كان مختبئا بين الاشجار على ضفة النهر عندما قتل اخوه وهو يحاول عبور النهر للاستكشاف . وقد شاهد كل شىء بعد ذلك . شاهدهم وهم يخرجون جثة اخيه من الماء .. وهم يضحكون وقد اراد ان يقتحم صفوفهم ويقتل عددا منهم ، ولكن زملاءه منعوه .

واقبل ليوكا وجلس بجوار المترجم وساله قائلا :

من اية قرية هو ..

فاشار المترجم الى الهضاب الممتدة وراء ضفة النهر .. ثم قال :

ـ من قرية سوبوكرسو .. على مسافة ثمانية اميال .

ـ هل تعرف رجلا كبيرا يدعى جيرى ـ خان .. انه من اهالى منطقة سوبوك رسو .. انه صديق لى .

ـ انه ايضا جار لى .

وهنا بدا الاهتمام على ليوكا ، فراح يتحدث مع المترجم باللغة التترية .

وبعد لحظات اخرى ؛ وصل قائد الحامية من القرية ، ومعه شيخها واثنان من اعيانها وكانوا جميعا على متون الجياد .. وحيا

القائد الجميع بيده ، ولكن الجنود لم يهتفوا ـ كالمعتاد ـ بعبارات التحية ، وانما حنوا رءوسهم ، على حين وقف عدد منهم وبينهم ليوكا ، وقفة عسكرية واعلن الجاويش ان كل شيء على مايرام ، وسرعان ما اتخذت الاجراءات الرسمية ، وكتبت المعاهدة وتسلم القائد الفدية ، وتقدم شقيق القتيل وزملاؤه لاستلام الجثة .

وقال قائد الجنود وهو يدير عينيه في الحراس :

ـ من منكم يدعى ليوكا جافريلوف ؟.

فرفع ليوكا قلنسوته وتقدم من قائد الحامية قائلا :

ـ انني تحت امرك ياسيدي .

فرمقه القائد بامعان وقال :

ـ لقد ارسلت تقريرا الى الكولونيل ، ولا ادري ماذا تم بشأنه. وطالبت في التقرير ان تمنح وساما لانك اصغر سنا من ان ترقى الى رتبة جاويش ، هل تعرف القراءة والكتابة .

ـ لا ياسيدي .

ـ ولكنك فتى شجاع . وكنت اتمنى لو انك تعرف القراءة والكتابة . . حسنا . . ضع قلنسوتك على راسك .

ثم استدار القائد الى بعض الحراس وقال :

ـ ساعدوا هؤلاء التتر على حمل الجثة .

وعاد ليوكا وجلس بجوار اولنين وهو مشرق الوجه بالسعادة. وبعد ان فرغ الجنود من حمل الجثة الى القارب . وثب شقيق القتيل اليه ،ثم استدار ودار بعينيه في وجوه حراس المخفر وهو يتحدث الى المترجم الذي اشار الى ليوكا .

وظل شقيق القتيل مركزا نظراته على ليوكا كانما يحفر صورته في ذهنه . ولم تكن في نظراته هذه اية معان للحقد او الغضب ، وانما كانت احتقارا خالصا .

وبعد ان هدأ كل شيء ، قال ابوكا لاولنين الذي كان يدخن سيجارة :

ـ لماذا تدخن .. ان التدخين عادة سيئة وضارة للصحة

فرد اولنين قائلا :

ـ انها مجرد عادة .. لماذا تسأل ؟.

ـ لاشيء .. اننا نفكر فقط فيما يمكن ان يحدث لو ان احدانا نحن القوزاق بدأيدخن .. حسنا .. كيف استطعت ان تعرف الطريق الى هنا عبر الغابة ؟.

فضحك اولنين وقال :

ـ الواقع انى ضللت الطريق .. وقد جئت اليكم بمحض المصادفة .

ـ وهل تعرف كيف تعود !.

ـ لا .. مطلقا ..

ـ انى على استعداد لان اصحبك .. يمكنك ان تطلب هذا من الجاويش ..

وقال اولنين لنفسه :

ـ ما اجمله من فتى ؟.

ثم تذكر مقبيل مرباكة له بالقرب من سياج البيت .. وعاد يقول لنفسه « ماهذه الحماقة والغباء .. هاهو ذا شاب قتل رجلا باسلا ومع ذلك يشعر بالسعادة والفخر وكانه قام بعمل مجيد ! كيف لم يستطع ان يدرك انه ليس هناك قط ما يدعو الى كل هذا الزهو وهذه السعادة ؟.

وقال احد الحراس وهو يعود من ضفة النهر :

ـ كن على حذر بالوكا . الم تسمعه وهو يسال عنك ؟ انه لن يستريح حتى يثار لاخيه منك .

فرفع ليوكا راسه وقال بصوت ينم عن الثقة بالنفس !

ـ اذا حاول أن يضع قدمه في هذه الناحية ، فسيكون مصيره مصير اخيه نفسه .

وهز الحارس كتفيه وقال !

ـ ان هذا التترى كما يبدو لى شديد البأس .. وعليك ان تاخذ حذرك من الآن فصاعدا أيها الزميل .

فارسل ليوكا ضحكة عريضة وقال :

ـ عليه ان يحمد الله اذ عاد الى قريته سالما .

وعندئذ ساله اولنين قائلا :

ـ لماذا انت سعيد الى هذا الحد .. ماذا يكون شعورك لو ان أخاك هو الذى قتل ؟.

فنظر ليوكا الى اولنين بعينين ضاحكتين وقد فهم مقصده ؛ ومن ثم قال ببساطة :

ـ ان هذا يحدث دائما .. الا يغير هؤلاء التتر علينا بين الحين والآخر ويقتلون اخواننا لنا ؟.

***

الفصل العاشر

الهدية

وانصرف قائد الحامية وشيخ القرية . وقرر اولنين ان يرضى ليوكا ويتيح له فرصة زيارة القرية . فطلب من الجاويش ان يسمح له بمرافقة ليوكا فى طريق العودة . وكان يعتقد ان الشاب يريد العودة الى القرية ليرى ماريانكا . ولم يتردد الجاويش فى اجابة اولنين الى طلبه .

وفى اثناء عودتهما الى القرية قال اولنين لنفسه :

« ان ليوكا يحب ماريانكا . وقد كان من الممكن ان احبها انا ايضا . ولكن من واجبى ان افسح الطريق لتنمية هذا الحب بين العاشقين » .

وغمره احساس بالعطف على ليوكا وماريانكا . وكان ليوكا يشعر بالسعادة الكاملة وهو يسير بجوار هذا الشاب الروسى الرفيق الذى احس نحوه بصداقة مفاجئة .. وكان هذا الشعور المشترك يجعل الاثنين يرغبان فى الضحك كلما التقت نظراتهما .

وقال اولنين وهما يقتربان من احدى البوابتين :

ــ اى هاتين البوابتين أقرب الى المكان الذى تريد الذهاب اليه .

فرد ليوكا قائلا :

ـ انني سامضي معك الى اقرب مكان لمسكنك .. لا تخشى شيئا .

فضحك اولنين وقال :

ـ انني لست خائفا ولكنني لا اريد ان اثقل عليك .

ـ لا .. لا .. مطلقا .

ـ حسنا .. هل يمكنك ان تنزل ضيفا على لتشرب معي كاسا من النبيذ الاحمر ؟ .

ـ ان الجاويش طلب مني ان اعود الليلة

ـ حسنا .. يمكنك ان تعود بعد ان نجلس ونتبادل الحديث ونشرب كاسا من النبيذ معا .

وبعد برهة صمت قال اولنين

ـ لقد سمعتك امس تغني .. ورايتك ..

ـ آه .. اننا بشر .

فاوما اولنين براسه ثم قال :

ـ هل حقا تنوي الزواج كما سمعت ؟ .

ـ ان امي تريد هذا .. ولكنني لم امتلك جوادا بعد .

ـ الست جنديا في الجيش العامل ؟ .

ـ لا .. انني التحقت بالجيش منذ عهد قريب . وليس لي حق في الحصول على جواد من الجيش الآن . ولست ادري كيف يمكنني الحصول على واحد منها . انني لن استطيع ان اتزوج قبل ان يكون لي جواد .

ـ كم ثمن الجواد ؟ .

فصمت ليوكا برهة قبل ان يرد قائلا :

كنا نتحدث عن شراء جواد في الضفة الاخرى من النهر وقد قيل لي ان اقل ثمن الجواد العادي هو ستين روبلا .

وفجأة قال اولنين !

ـ ما رايك لو التحقت بخدمتى واصبحت مراسلة لى ؟. اننى استطيع ان ارتب الامر مع قائد الحامية وسوف اعطيك جوادا لان لدى جوادين .. ويمكننى الاستغناء عن احدهما .

فضحك ليوكا قائلا :

ـ ماذا تعنى بهذا ؟ ولماذا تقدم الى مثل هذه الهدية ؟ .. ان فى مقدورى ان احصل على جواد بوسيلة ما .

وارتبك اولنين قليلا .. لقد اراد ان يقول شيئا ، ولكنه لم يعرف ماذا يقول . واخيرا غمغم قائلا .

ـ الا تريد ان تكون مراسلة لى ؟.

ـ لا ..

ـ حسنا .. ولماذا لاتريد ان تقبل جوادا هدية منى !.

وبعد برهة صمت .. قال ليوكا :

ـ الديك بيت فى موسكو !.

ولم يجد اولنين مفرا من ان يقول له ان لديه عددا كبيرا من البيوت فى موسكو .

وعندئذ قال ليوكا :

ـ بيوت اكبر من بيوتنا ؟.

ـ نعم .. اكبر جدا .. ارتفاع كل بيت يزيد على ثلاثة طوابق .

ـ وهل لديكم جياد مثل جيادنا ؟.

ـ ان لدى مئات من الجياد .. كل واحد منها يساوى لثمانة او اربعمائة روبل فضى .. ولكننى احب جيادكم .

وبعد مسيرة خطوات اخرى فى صمت ، قال ليوكا :

ـ وما الذى جاء بك الى هنا ؟ هل جئت بمحض ارادتك ، ام ارغمك احد على المجىء ..

ثم اشار الى منعطف فى ممر الغابة واردف قائلا :

ـ انرى .. هاهو ذا المكان الذى ضللت فيه طريقك .. كان يجب ان تنحرف الى اليمين بدلا من اليسار .

ورد اولنين على سؤاله قائلا :

ـ لقد جئت بمحض رغبتى .. وددت ان ارى بلادكم وان اشترك فى بعض الحملات العسكرية .

ـ آه .. لشدما اتمنى لو استطعت الاشتراك فى هذه الحملات يوما .. اتسمع عواء هذه الذئاب ؟.

ـ اخبرنى ياليوكا .. الم تشعر بالرهبة وانت تقتل رجلا .

ـ الرهبة ؟ لماذا ؟ وكيف اشعر بالرهبة وانا اريد الاشتراك فى احدى الحملات العسكرية !.. ارجو ان تتيح لى هذه الفرصة يوما .

فهز اولنين كتفه وقال :

ـ من يدرى .. فربما اشتركنا معا فى احدى هذه الحملات قبل الاحتفال بالعيد .

ـ اننى على كل حال لا اكاد اعرف سببا يبرر مجيئك الى هنا. ان لديك جيادك ، واملاكك ، وعمال مزارعك . لو كنت مكانك ، لما تركت هذا كله لاعيش فى مثل هذه البرارى البعيدة عن العمران ، ما هى رتبتك ؟.

ـ اننى ضابط متطوع ، ولكننى مرشح للترقية قريبا .

وهز ليوكا راسه فى حيرة وقال :

ـ لنفرض انك صادق فيما تقول ، فلماذا جئت للاقامة هنا ؟ اننى لا اجد ما يبرر هذا التصرف ؟ هل انت مسرور باقامتك معنا ؟.

ـ كل السرور .

وكان الظلام كثيفا عندما وصلا فى النهاية الى القرية . وما كاد اولنين يصل الى الكوخ ، حتى اسرع الى المربط وعاد بجواد من جواديه .. وكان قد اشتراه من مدينة جروزنى بثمن زهيد . لانه كان جوادا عاديا فى العاشرة من العمر .

ولما قدمه الى ليوكا ، قال هذا فى دهشة بالغة :

ــ عجبا ! لماذا تقدم الى هدية ثمينة كهذه وانا لم افعل من اجلك شيئا ؟ .

وكان اولنين فى تلك اللحظة يشعر بسعادة غامرة .. كان يشعر انه سعيد فى هذه القرية القوزاقية .. وانه امسى جزءا منهـا ، يحبه ، ويحب اهلها ، ويحب ليوكا وكانه يعرفه منذ الطفولة .

ولما كرر الشاب عليه السؤال ، افاق من تفكيره وقال بصوت هادىء :

ــ انى لم افعل شيئا كبيرا ، ارجو ان تقبل هذه الهدية المتواضعه ولا شك ان الايام ستتيح لك الفرصة لتقدم لى صنيعا كبيرا .. ومن يدرى .. فلعلنا نشترك معا فى احدى الحملات العسكرية .

وازداد شعور ليوكا بالارتباك . وعاد يقول دون ان ينظر الى الجواد

ــ ولكنى لا زلت مندهشا . انك تقول انك فى غير حاجة الى هذا الجواد . فهل يمكن ان يكون الانسان فى غير حاجة الى جواد .. اى جواد ؟ .

ــ ود .. ارجو ان تقبله .. انك اذا رفضت هذه الهدية فسوف تجرح شعورى .

ثم اردف قائلا لفانيوشا :

ــ قدم له الجواد ..

وقال ليوكا وهو يمسك بعنان الجواد :

ـ حسنا .. انني لا استطيع ان اعرب لك عن مبلغ سعادتي بهذه الهدية ولكنني لا زلت مندهشا فانني لم اسمع في حياتي بشيء مثل هذا .

وقال اولنين وهو يشعر بسعادة غلام في الثانية عشرة من عمره :

ـ اربط الجواد هنا . انه جواد طيب . لقد اشتريته من جروزني . هلم يا فانيوشا ..

احضر لنا بعض النبيذ .. ولندخل معا يا ليوكا لنشرب !

وجلس ليوكا في الكوخ . واقبل فانيوشا بالنبيذ ، وقال وهو يرفع كاسه :

ـ اسأل الله ان اتمكن يوما من رد جميلك .. ما اسمك يا سيدي ?

ـ اولنين ديمتري اندرفيتش .

ـ حسنا يا سيدي .. ليباركك الله ، ولنكن اخوين مدى الحياة . وارجو ان تتكرم بزيارتنا يوما . اننا لا نملك كثيرا ، ولكننا نعرف كيف نكرم اصدقاءنا . وسوف اخبر امي لكي تقدم اليك كل ما تحتاج له .. من زبدة او عنب .. واذا جئت الى المخفر ، فسوف اكون خادمك المطيع ، سوف اصحبك الى الصيد ، او امضي بك عبر النهر او الى اي مكان تريد .

ثم صمت مفكرا وعاد يقول :

ـ لو انك جئت الينا منذ ايام ، لجعلتك تشترك معنا في صيد الخنزير البري الذي ظفرنا به ..

ـ شكرا جزيلا يا ليوكا ..

واقترب ليوكا براسه من راس اولنين وهمس قائلا :

ـ وهناك شيء آخر لعلك تريد ان تعرفه .. ان لي صديقة

لتربيا يدعى جيرى خان . لقد طلب منى ان اذهب ذات ليلة لنظفر ببعض الجياد البرية فى هضاب فوجاى .. فهل تحب ان تشترك معنا فى هذه المغامرة .. لسوف اكون حارسا لك .

وربت اولنين على كتف ليوكا وقال :

ـ نعم .. نعم .. لسوف نذهب معا ذات يوم .

وتراخى ليوكا فى جلسته وكأنما شعر اخيرا انه يجلس مع صديق حميم . وكان اولنين فى دهشة لبساطته وهو يتبادل معه الحديث وفى النهاية ، وبعد ان لعبت الخمر براس الشاب القوزاقى ، نهض وصافح اولنين منصرفا .

وبعد انصرافه ؛ اطل اولنين من نافذته ليرى ماذا سيفعل الشاب ليوكا .. وكان هذا يعبر الفناء مطرقا ، حتى اذا وصل الى البوابة ، فك عنان الجواد ، ووثب على ظهره فى خفة القط ، وانطلق به راكضا فى طول الشارع ، وكان اولنين يعتقد ان ليوكا سوف يذهب الى ماريانكا ويخبرها بامر الهدية وبانه قد ظفر اخيرا بالجواد الذى كان لا بد له أن يحصل عليه قبل الزواج . ولكن برغم ان ليوكا لم يفعل هذا ، فقد شعر اولنين بالغبطة والرضا ، واحس انه سعيد تماما بنفسه وبالدنيا كلها .. كان سعيدا كالطفل .. ولم يستطع ان يملك نفسه من اخبار فانيوشا بانه اهدى الى ليوكا جوادا ؛ ثم ذكر له السبب فى تقديم هذه الهدية ،وبعد ذلك راح يشرح نظريته عن السعادة ولكن فانيوشا لم يستطيع أن يهضم هذه النظريه قائلا انه لايملك اموالا يلقى بها هكذا فى الطريق .

ومضى ليوكا الى بيته ، وترجل عن جواده ، وسلمه الى امه وطلب منها ان تذهب به الى جياد القرية ليرعى العشب معها . وكان عليه ان يعود الى المخفر فى الليلة نفسها . ولما علمت امه بامر الجواد ، وكيف ظفر ليوكا به ، هزت راسها فى دهشة وهى تعتقد فى قرارة نفسها ان الجواد لا بد ان يكون مسروقا .

وعاد ليوكا فى الطريق الى المخفر وهو مستغرق فى افكاره حول تصرفات اولنين فبرغم ان الجواد لم يكن فى رأيه يساوى اكثر من اربعين روبلا ، فانه كان سعيدا بهذه الهدية . ولكنه لم يستطيع ان يجد سببا واحدا يبرر هذا التصرف العجيب وكان بسبب هذا العجز عن فهم سر الهدية لا يشعر بالشكر او عرفان الجميل ، بل على العكس ، كانت الشكوك تملأ نفسه فى نوايا اولنين . انه لايعرف ماذا يريد اولنين منه ، ولا لماذا يقدم اليه هدية ثمينة كهذه وهو لا يكاد يعرفه !. ان احدا لم يسمع من قبل ان رجلا اهدى جوادا ثمنه اربعين روبلا لانسان غريب عنه . ولو كان اولنين مخمورا حين قدم هذه الهدية ، لالتمس ليوكا له العذر . ولكنه كان فى تمام وعيه . اذن ليس هناك غير معنى واحد لهذا التصرف . وهو ان اولنين اراد ان يرشوه ليؤدى له عملا منكرا .. وقال لنفسه : حسنا .. اذا كان هذا هو هدفه فلا خوف على .. لقد ظفرت بالجواد . ولسوف نرى ماذا سيحدث بعد ذلك . اننى لست ساذجا ، وسوف نرى من هو الساذج منا .. انا ام هو .

وازداد احساسا بان عليه ان يحمى نفسه من نوايا اولنين الشريرة ، وهكذا تحولت مشاعره من الصداقة الى العداء والنفور.

ولم يذكر لاحد كيف ظفر بالجواد .. قال للبعض انه اشتراه، وراوغ البعض فى الاجابة عندما سألوه .. ولكن الحقيقة انتشرت فى انحاء القرية . ولما وصلت الى مسامع ماريانكا وامها وابيها وغيرهم من القوزاق بدءوا يتخذون حذرهم من هذا الروسى . ولكنهم برغم مخاوفهم كانوا يشعرون بالاحترام الشديد نحو هذا الروسى الكريم .

كان بعضهم يقول للبعض الآخر :

ــ هل سمعت بما حدث ؟. ان هذا الروسى الذى يقيم فى

الوخ ابليا المعلم قد اهدى جوادا لليوكا .. لا شك انه واســـــع الثراء .

ويرد عليه احدهم قائلا :

ـ نعم سمعت .. لا شك ان ليوكا قد ادى له خدمة جليلة .. لسوف نعرف الحقيقة يوما .. وايا كان الامر ، فان الحظ دائما يسعى فى ركاب ليوكا .. الخطاف »

الفصل الحادى عشر

الوليمة

عاش اولنين فى القرية القوزاقية عيشة هادئة رتيبة . وكاد عمله فى المعسكر لا يستغرق منه الا ساعة او بعض ساعة بين الحين والآخر . وكان المعتاد أن تطلق الحرية فى التصرف للضابط المتطوع فى الجيش اذا كان من الطبقة الثرية فى المجتمع . ومن ثم لم يكن مفروضا عليه أن يقوم بعمل معين او أن يشترك فى التدريبات العسكرية بعد ان اثبت جدارته خلال المعارك التى اشترك فيها مما جعل رؤساءه يطالبون بترقيته . ولهذا ترك وشأنه فى سلام . وكان الضباط يعتبرونه احد افراد الطبقة الارستقراطية ، ومن ثم كانوا يتجنبونه ولا يشركونه معهم فى اسمارهم والعابهم للورق وحلقات غنائهم . ولم يكن هو - من جانبه - يهتم كثيرا بهذا كله . كما كان ايضا لا يحذو حذوهم فى انطلاقاتهم بالقرية ، يعبثون ، ويغازلون العذارى ، ويتصلون بالنساء ، بل ويتزوجون ايضا . وكان اولنين يحب ان يحيا حياته الخاصة وان يتجنب الطرق المعتادة المطروقة . وكان يتبع هذا التقليد فى حياته بالقرية القوزاقية .

وكان يستيقظ فى الصباح الباكر بطبيعته . وبعد ان يشرب الشاى فى الشرفة ويستمتع بمنظر الجبال والصباح

وماريانكا ، يرتدي سترته المصنوعة من جلد الثيران ويدس خنجره في حزامه ، ويحمل بندقيته وكيسه الصغير المحتوى على طعام الغذاء والتبغ ، ويستدعي كلبه ويمضي بعد الخامسة بقليل الى الغابات الممتدة وراء القرية وفي نحو السابعة مساء يعود متعبا جائعا ، حاملا نحو ست أو سبع بطات برية الا انه من المستحيل عليه ان يعرف فيم كان يفكر في خلال رحلاته اليومية هذه للصيد هل كانت الافكار تدور بذهنه ، او الذكريات او الاحلام . في بعض الاحيان كان شيء من هذا كله يمر بذهنه مرا سريعا خاطفا ، فاذا تنبه من خواطره سأل نفسه عم كان يفكر فيه ! وفي بعض الاحيان كان يظن انه كان يتصور نفسه مواطنا قوزاقيا يعمل في الحقول والبساتين مع زوجته القوزاقية ، او تتريا يعيش في الجبال ، او وعلا يهرب من الصياد ، وفي خلال هذا كله كان لا يكف عن التلفت حوله عسى ان يلمح بطة او غزالا او خنزيرا بريا .

وفي الامسيات كان الصياد ايروشكا يأتي ويجلس معه ، وكان احيانا يحضر معه النبيذ الاحمر ، فيجلسان معا ويتبادلان الحديث ويشربان حتى يأويا الى الفراش وفي الصباح يمضي الى الصيد مرة اخرى وهكذا . وفي ايام العطلات والاعياد ، كان يمضي اليوم كله في الكوخ . وكان يشغل نفسه طيلة الوقت بمراقبة ماريانكا وهي تقوم باعمال البيت المختلفة . ودون أن تشعر هي بنظراته التي تلاحقها . وكان يتأمل الفتاة الحسناء ويحبها ، او هكذا كان يظن ، كما يحب الانسان مناظر الطبيعة الجميلة ومن ثم لم يخطر بباله ان تتطور علاقته بها الى اكثر من هذا . لم يخطر بباله قط ان تقوم بينه وبينها علاقة مثل تلك التي كانت قائمة بينها وبين القوزاقي ليوكا . وكان يشعر انه لو سار على نهج زملائه الضباط وحول اعجابه بماريانكا الى غرام ، لجلب على نفسه ـ وربما عليها ايضا ـ متاعب وآلاما ليس لها مايبررها . هذا فضلا عن شعوره العميق بأن سلوكه هذا نحوها ينطوي على لون من انكار الذات . . مما اضفى عليه احساسا بالرضا والسعادة . ولكن اهم شيء في الموضوع كله انه كان يرهب ماريانكا ولا يجرؤ على ان يوجه اليها كلمة حب . .

وفي يوم من ايام الصيف ، عندما كان اولنين جالساً بكوخه لانه لم يشعر بالرغبة في الصيد ، اقبل عليه فجاة شاب كان قد تعرف به في احدى الحفلات الساهرة بموسكو .

وقال الشاب بمزيج من اللغة الروسية واللغة الفرنسية شأن الطبقة الارستقراطية يوم ذاك :

ـ أوه .. ماأسعدني بلقائك ياعزيزي ، ولشدما كانت بهجتي حين عرفت انك تقيم هنا .

وصمت برهه قبل ان يستطرد قائلا :

ـ لقد قيل لي ان أولنين هنا ، احقا ؟ اولنين ؟ ان هذا لشيء عظيم ان اولنين من اعز اصدقائي . تصور كيف يجمع بيننا القدر في هذا المكان ! ماذا تفعل هنا ياعزيزي ؟.

وكان الشاب هو الامير بلنسكي ، وقد راح يتحدث في اسهاب عن الظروف التي دفعت به للالتحاق بالجيش القوزاقي ، وعن الوعود التي قطعها له قائد الجيش ليجعله احد اركان حربه بعد ان يتدرب على القتال في مختلف المناطق العسكرية . وانثنى من هذا الحديث الى الثرثرة عن الحياة الاجتماعية في موسكو ، وعن مغامراته الغرامية التي لاحصر لها . وكان اولنين ينصت اليه في ضيق شديد لان كل شيء في حديثه وتصرفاته كان يذكره بالحياة المتعفنة المنحلة التي يحاول ان يهرب منها في هذه القرية القوزاقية النائية . لقد بدا له ، وهو ينظر الى بلنسكي وينصت اليه ، ان عالمه القديم الذي يحاول الفرار منه ، قد لحق به فجاة . وشعر بالغضب من بلنسكي ومن نفسه ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا غير الجلوس والانصات الى هذه الثرثرة المزعجة .

ولم ينصرف الامير الشاب الا بعد ان جعل اولنين يعده بالزيارة بين الحين والآخر . ولكن اولنين كان في قرارة نفسه قد ازمع ان يتجنب بلنسكي بقدر الامكان . اما فانيوشا ، فكان سعيدا بهذه الزيارة ، لانها اعادت اليه شيئا من حياته الحافلة في موسكو .

وانغمس بلنسكي فورا في الحياة بالقرية القوزاقية كاي ضابط

شاب واسع الثراء وما ان مضى شهر حتى أصبح كأنه واحد من اهلها ، يعرف الجميع ، ويعرفه الجميع ويقدم الخمر للعجائز من الرجال ، وهدايا الاسلحة للشبان ، والحلوى والمطارف للعذارى والنساء ويقيم على نفقته الولائم وحفلات الشاى التى كان يدعو اليها عذارى القرية وكن يدعونه ــ لسبب ما ــ بكلمة « بابا » . وكان طبيعيا ان يغدو موضع اعجاب وحب الجميع . على حين كان الجميع ينظرون الى اولنين المنطوى على نفسه نظرتهم الى مخلوق شاذ .

●

كانت الساعة الخامسة فى بكور الصباح ، وكان فانيوشا يوقد النار فى الفناء تحت ابريق الشاى وقد جعل من حذائه الطويل منفاخا لاضرام النار . وكان اولنين قد مضى ليستحم مع جواده فى نهر تيريك اذ كانت السباحة احدى هواياته . وكانت ربة البيت العجوز اولتيكا مشغولة باشعال الفرن لاعداد وجبة الافطار . اما ماريانكا ، فكانت فى حظيرة الماشية تحلب اللبن .

وبعد لحظات سمع الجميع دقدقة حوافر جواد فى الشارع ، وما لبث اولنين ان دخل الفناء معتليا صهوة جواده الجميل المتألق بالماء ، واطلت ماريانكا براسها من الحظيرة ، ثم عادت الى عملها . ولكن اولنين ظن انها لاتزال تختلس النظر اليه فشعر بالزهو والاختيال ، وخيل اليه انها تختلس النظر الى جواده الفاخر ، والى ملابسه الانيقة ، والى مظهره العام الذى يجمع بين فتوة الشباب ، وكرم المحتد ، ووفرة المال .

وصاح بلهجة طروب قائلا لفانيوشا :

ــ الشاى يافانيوشا .. وبسرعة .

وفيما هو يدخل الكوخ ، نظر بسرعة الى باب الحظيرة ، ولكنه فوجىء بماريانكا لا تنظر اليه .. وانما كانت مستغرقة فى حلب الابقار .

وبعد ان شرب الشاى وتناول الافطار ، جلس فى الشرفة وبين يديه كتابه ، ولكنه لم يستطع ان يقرا فيه سطرا ، لانه راح يرقبها

ماربانكا ، بعد ان ذهبت بالابقار والجاموس الى المراعى ، وعادت لتقوم باعمال البيت ، ويتاملُ كلَ حركة وسكنة منها وكانت هى تختلس النظر اليه بين الحين والآخر وتلتمع فى عينيها نظرة الفتاة المزهوة بجمالها .. الشاعرة بتأثير هذا الجمال على قلوب الرجالْ

وفجأة اقبل بلنسكى فى ملابس ضابط بالجيش القوزاقى وقالْ لاولنين محييا :

ـ طاب يومك ياصديقى العزيز ؟.

فصافحه اولنين قائلا :

ـ طاب صباحك يابلنسكى .. ما الذى دعاكَ الى الاستيقاظ فى هذه الساعة المبكرة !.

ـ ليس الامر بيدى .. لقد ايقظونى مبكرا للاستعداد لحفلة الغناء الليلة فى بيت اوستنكا .. هل ستأتين ياماربانكا ؟.

ودهش اولنين حين راى بلنسكى يتحدث الى ماربانكا وكأنه عرفها منذ مدة طويلة ، على ان ماربانكا تركت الفناء ، وكأنها لم تسمع شيئا ، واتجهت نحو حظيرة الابقار .

وصاح بلنسكى قائلا :

ـ هل تشعرين بالخجل منى يافتاتى الجميلة ؟.

ثم اردف قائلا لأولنين !

ـ الواقع انها تشعر بالخجلْ منك انت يا اولنين .

وقال اولنين :

ـ ماهذه الوليمة التى تتحدث عنها يابلنسكى ؟.

ـ ان اوستنكا ستقيمها الليلة فى مسكنها ، على نفقتى طبعا . وسوف يحضرها عدد من عذارى القرية ، وسناكلْ فيها الوانا من الطعام القوزاقى الشهى .. وقد جئت لادعوك .

وقال اولنين :

ـ ولكن ماذا سنفعلُ فى هذه الوليمة ؟.

وغمز بلنسكى بعينه وهو يومىء الى حظيرة الابقار ، واضطرم وجه اولنين وقال وهو يهز كتفيه :

ـ انك شاب غريب الأطوار يابلنسكى .

ـ اوه .. دعك من المراوغة وصارحنى بالحقيقة .

وقطب اولنين جبينه ، ولكن بلنسكى ابتسم فى مكر وقال :

ـ هلم صارحنى ؟ هل تريد ان تقول انك لا .. لا تستمتع بوقتك مع فتاة جميلة كهـذه .. وانت تسكن معها فى مكان واحـد ؟.

ولما صمت اولنين ، قال بلنسكى كأنما يحدث نفسه :

ـ انها انموذج للجمال الكامل .

ـ نعم .. انها جميلة الى حد مذهل يابلنسكى .

ـ حسنا .. وماذا بعد ؟

ـ ربما تدهش يابلنسكى حين تعرف الحقيقة . اننى منذ أقمت هنا لا اهتم بالنساء ولماذا أهتم بهن والفوارق بينى وبينهن ضخمة؟ أما ابروشكا الصياد العجوز ، فالأمر معه يختلف .. اننا نشترك معا فى هواية الصيد .

فقال بلنسكى ضاحكا :

ـ ولكن الأمر معى يختلف . ان النساء فى نظرى هن النساء فى كل مكان وفى اى مكان .. المراة هى المراة ، سواء فى موسكو أو فى القوزاق .

فهز اولنين رأسه وقال :

ـ لاياعزيزى ، اننى لاأعبث بالنساء فى موسكو ولكننى لاأحترمهن .. اما نساء هذه القرية فانى أشعر نحوهن بالاحترام الكامل .

ـ حسنا .. استمر فى احترامك لهن .. ولن يمنعك احد

ولم يجب أولنين . وكان يبدو عليه انه يريد الاستمرار فى الاعراب عن رايه بالنسبة للمراة القوزاقية .. ومن ثم استطرد يقول :

ـ اعرف اننى شاذ فى تصرفاتى امامك . ولكن الحياة هنا جعلتنى اعتنق مبادىء معينة اهمها الحرص على احترام نفسى

واحترام غيري ، وهذه المبادىء تملأ قلبي بالرضا والغبطة . ولو انني سرت في طريقك . لفقدت هذا الشعور بالسعادة . وعدا هذا فانا اتطلع الى شيء مختلف ، وقد وجدت هنا لونا مختلفا من الوان الحياة وهذا مالا تراه أنت .

ورفع بلنسكي عينيه في عجب وقال :

ـ على كل حال ارجو ان تحضر الوليمة الليلة وستكون ماريانكا معنا . وتاكد اني ساعرفك بها . وارجو الا تتخلف . ويمكنك ان تنصرف في اى وقت اذا شعرت بالملل .. فهل ستاتي ؟.

ـ نعم .. ولكنني اصارحك بأني اخشى على نفسي من الوقوع في الحب .

فضحك بلنسكي عاليا وقال :

ـ اها ! سوف ارعاك واحرسك .. فهل ستاتي ؟.

ـ ساحاول ..

ـ اوه .. ماهذا بحق السماء ؟ لماذا تعيش هنا كالراهب يااولنين ؟ ايليق ان تترهب في قرية زاخرة بالجميلات المائسات؟.. لماذا تفسد حياتك وتحرم نفسك مباهجها ؟ هل سمعت ان فرقتنا سوف تنتقل الى نوزدشنك .

فرد اولنين قائلا :

ـ لا لم اسمع ! وانما سمعت فقط ان الفرقة الثامنة هي التي ستنتقل الى هناك .

ـ لقد تسلمت رسالة من رئيس اركان القيادة العليا يخبرني فيها ان فرقتنا سوف ترسل الى ميدان القتال في نوزدشنك . واني سعيد بهذا ، لأني ضقت ذرعا بحياة الخمول والركود هنا .

ـ لقد سمعت اننا نستعد القيام باغارة قريبة !.

ـ انني لم اسمع بهذا ، ولكنني علمت ان كردنوفزن نال وسام القديسة حنة لحسن بلائه في الاغارة السابقة . وكان المسكين يتمنى ان يرقى الى رتبة يوزباشي .. ومن ثم ذهب الى قيادة الجيش .

واستمر بلنسكي في الثرثرة حتى انصرف .

وعند اقتراب المساء ، تحولت افكار اولنين الى الحفلة التى دعاه اليها صديقه الامير . واستبدت به الحيرة . كان يريد ان يذهب وكان فى الوقت نفسه يخشى ان يبدو غريبا منطويا على نفسه .. وكان يعلم ان مثل هذه الحفلات لايحضرها الرجال او النساء والعجائز ، وانما الفتيات فقط . فكيف ستكون . وكيف سيتصرف خلالها !.. وماذا سيقول ، وعن اى شيء سيدور الحديث . وكيف سيتصرف مع هؤلاء العذارى القوزاقيات الوحشيات !.. واذا حضرت ماريانكا . فماذا يقول لها ، وكيف سيتصرف معها . ايمكن ان يوطد علاقته بها رغم نفورها منه . ان بلنسكى يؤكد له ان المراة هى المراة .. فى موسكو ، او فى القوزاق ، فهل يذهب ليرى مقدار مافى هذه الآراء من حقيقة ؟.

وخرج من الكوخ مرتديا اجمل ملابسه . ولما وصل فى مسيره الى بيت بلنسكى لم يسعه الا ان يدخل .

وكان كوخ بلنسكى يشبه تماما كوخ اولنين . كان يقوم على دعائم خشبية يرتفع عن الارض نحو خمس اقدام ، ويتكون من غرفتين الاولى تحتوى - كما لاحظ اولنين عند دخوله - على حشايا من الريش ووسائد وسجاجيد منسقة فى جوانب الغرفة بذوق جميل ، وعلى الجدران راى الاسلحة ، والاوانى النحاسية معلقة ، وتحت احدى الارائك شاهد كمية من البطيخ والشمام . اما الغرفة الاخرى فكان بها فرن كبير ، ومائدة ، واريكتان وبعض الايقونات المطلية بالوان زاهية . وكانت هذه الغرفة هى المخصصة لاقامة بلنسكى ومن لم يكان يضع فيها سريره الصغير وحقائبه وحاجات السفر .

اما بلنسكى نفسه فكان راقدا فى سريره ، مرتديا قميصا وسراويل ، ويقرا كتابا فرنسيا . وما ان وقعت نظراته على اولنين حتى وثب وقال هاتفا مرحبا :

- آه .. لقد جئت ! اترى كيف اعيش يا صديقى ؟ لا باس .. آه اننى مسرور بحضورك .. وبهذه المناسبة اخبرك ان الاستعدادات للحفلة قائمة على قدم وساق . ان الفطائر القوزاقية شهية المذاق انها محشوة باللحم والزبيب ، انظر الى مايجرى فى كوخ اوستنكا

وتظر اولنين من النافذة ، ورأى عددا من الفتيات يهرعن الى الكوخ وهن حاملات الاوعية والاوانى واطباق الطعام والشراب .

وصاح بلنسكى قائلا اهن :

ـ هل اعددتن كل شيء يابنات .

وردت اوستنكا قائلة :

ـ بعد لحظات اخرى .. هل « بابا » جائع .

ثم اقبلت الى غرفته بجسمها الممتلىء وقد شمرت عن ساعديها لتحمل بعض الاوانى .. ولما حاول بلنسكى أن يداعبها ، راعتمنه وهى تضحك قائلة :

ـ حذار يا «بابا » .. ان الاوانى قد تقع من يدى .

ثم قالت لاولنين وهى مستمرة فى الضحك :

ـ يحسن ان تأتى وتساعدنا فى الاعداد . ولا تنس ان تحضر معك بعض الحلوى للبنات .

وكانت تقصد بالحلوى فطائر الزنجبيل والبونبون .

ـ وهل حضرت ماريانكا ؟

ـ نعم .. طبعا .. وقد حضرت لنا معها بعض المكسرات .

وقال بلنسكى لاولنين بعد انصراف اوستنكا :

ـ اتعرف لو انني جعلت اوستنكا ترتدى وتتزين على نمط النساء فى موسكو ، لبدت ابهى واجمل منهن جميعا . اورأيت تلك المراة القوزاقية التى تزوجها الكولونيل بورشيف انها أروع من ملكة فى جمالها وعظمتها .

فرد اولنين قائلا :

ـ اننى لااعرف زوجة بورشيف ، ولكننى لااعتقد ان المراة القوزاقية تبدو اجمل وابهى فى ملابس اخرى غير ملابسها الوطنية هذه .

وتنهد بلنسكى فى ارتياح وقال :

ـ اننى سعيد بقدرتى على التكيف مع اى لون من الوان الحياة حسنا سوف اذهب وارى ماذا يفعلن .

ثم نهض وقال وهو يسرع بالخروج !

ـ ولا تنس انت أن تحضر معك الحلوى .

وقدم اولنين مبلغا كبيرا لجندى المراسلة الخاص ببلنسكى وطلب منه ان يشترى كمية من فطائر الزنجبيل والبونبون ..

وساله الجندى قائلا :

ـ كم فطيرة زنجبيل اشتريها وكم فطيرة بعسل النحل ؟.

ـ اشتر اى عدد تشاء .

ـ هل انفق المبلغ كله ؟.

ـ نعم .. كل المبلغ .

وجلس اولنين الى النافذة يرقب مايجرى فى كوخ اوستنكا .

وكان يسمع من مكانه رنين ضحكات الفتيات وهن يتسابقن الى اعداد الحفلة وقد ازداد ضحكهن عندما رآهن يطردن بلنسكى من الكوخ . وعاد الشاب يضحك عاليا ويحدث أولنين بما فعله معهن وبعد لحظات ، اقبلت أوستنكا بكل وقار ودعت الشابين الى الحفلة قائلة ان كل شىء قد تم اعداده .

ولما دخلوا الكوخ الآخر ، وجد اولنين ان كل شىء قد تم اعداده حقا .. كانت الحشايا والوسائد موضوعة بجوار الجدران فى تنسيق جميل ، وكانت المائدة المنخفضة فى وسط الغرفة تحمل اوعية النبيذ والكئوس والفطائر المختلفة والوان من الاسماك المجففة واللحوم الباردة . وفى ركن من الغرفة ، بجوار الفرن ، كان ثمة ست فتيات فى ملابسهن الحريرية الزاهية ، وبلا عصائب على رءوسهن ، تتبادلن الأحاديث والضحكات .

وقالت اوستنكا لضيوفها :

ـ ارجو ان تشرفونى وتتقدموا الى المائدة .

ولما راى اولنين ماريانكا بين الفتيات ـ الجميلات جميعا ـ شعر بالحرج الشديد ولم يدر ماذا يقول . ومرة اخرى احس انه غريب فى هذا المكان . ولكنه قرر ان يقلد بلنسكى فى كل مايقول او يفعل وتقدم بلنسكى نحو المائدة فى وقار ، ورفع كاسه ليشرب نخب اوستنكا ، ثم دعا الفتيات ليشربن معه . ولكن اوستنكا قالت :

ـ ان التقـاليد تمنع الفتيات من شرب النبيذ فى هذه الحفلات

وهنا قالت الفتيات بصوت جماعى :

ـ ولكننا لانجد باسا من ان نشربه ممزوجا بعسـل النحل .

وفى تلك اللحظة اقبل جندى المراسلة يحمل لفائف كبيرة من الفطائر والحلوى ، واستقبلته الفتيات بالهتاف والترحيب ،وسرعان ما اخذ اولنين يوزع عليهن هداياه ، وبعدها اخذت الفتيات والشـابان ياكلون ويشربون ويتبادلون الغزل والضحك .

ورغم هذا كله ، فقد ظل اولنين يشعر بالحرج والارتباك كلمـا تلاقت نظراته بنظرات ماريانكا .

الفصل الثانى عشر

يتنافسون على حب ماريانكا

قال بلنسكى لماريانكا بعد ان فرغوا من الطعام !

ـ ماريانكا .. كيف لم تتعرفى حتى الآن بنزيلكم اولنين ؟.

فقالت ماريانكا وهى ترسل نظراتها الى اولنين !

ـ وكيف اتعرف عليه وهو لم يحاول ان يزورنا يوما ؟.

وجفل اولنين واضطرم وجهه ..

وقال بلا تفكير :

ـ اننى مازلت خائفا من والدتك منذ استقبلتنى اول مرة ..

فانفجرت ماريانكا ضاحكة وقالت !

ـ اذن فانت خائف منها !.

ثم استدارت عنه .

وكانت اول مرة يرى فيها اولنين وجهها كله ، دون أن تخفى جانبا منه بمنديلها ، ومن ثم ادرك فورا لماذا تسمى فى القرية ملكة جمال النساء .

ولما استدارت عنه ، شعر بالضيق ، وقرر ان ينصرف ، ولكن بلنسكى امسك بذراعه وقال له محتجا !

ـ الى اين ياصديقى ؟.

فقال مراوغا :

ـ لاشترى بعض النبغ .
ـ انتظر وسوف ارسل الجندى التابع لى لشراء ماتريد .
ثم همس فى اذنه قائلا :
ـ لاتتصرف الآن .. لسوف نضع نقودا فى اناء اوستنكا الفضى بعد كل كاس نشربها .. هذا هو التقليد المتبع .. لان الليلة عيد ميلاد اوستنكا .
وقال اولنين بنفس الصوت الخافت :
ـ خذ كل مالدى من نقود وضع فى انائها ماتريد بدلا منى .. لقد شربت كفايتى .
ـ لا .. اذا انصرفت الآن فسوف تكون موضع احتقار الجميع.
ولم يسع اولنين الا ان يبقى ، والا ان يشرب النبيذ على الطريقة القوزاقية المتبعة فى مثل هذه الحفلات ، اى من حافة الوعاءالخشبى الكبير مباشرة . وسرعان ما انتشى بالخمر ، فنسى حرجه وارتباكه ، وشعر بالرغبة فى الاندماج مع بقية المدعوين ومبادلتهم الحديث والضحك .
وقال بلنسكى وهو يمسك بمعصم ماريانكا :
ـ هلمى يا ماريانكا .. لقد جاء دورك لتقدمى الينا الخمر والقبل !.
فتظاهرت ماريانكا بلكم بلنسكى على وجهه وهى تضحك قائلة :
ـ هذه هى قبلاتى .
وقالت احدى الفتيات بصوت كتغريد البلابل !
ـ ان «بابا» مسموح له باخذ قبلة دون ان يدفع الثمن .
فامسك بها بلنسكى وقبلها رغما عنها وهو يقول :
ـ اذن لابدا بك ايتها الحسناء الصغيرة .
ثم استدار الى ماريانكا واردف قائلا :
ـ هلمى يا ماريانكا .. قدمى كاسا لنزيلكم .
ثم امسك بيدها وقادها الى الاريكة التى جلس عليها اولنين وجعلها تجلس بجواره ، ثم ادار وجهها بيده نحو صديقه وقال له

ـ الا ترى ؟ اليست رمزا للجمال ؟».

واستجابت ماريانكا لتصرفات بلنسكى ، وراحت تنظر الى اولنين وهى تبتسم فى زهو وكبرياء .

وعاد بلنسكى يقول :

ـ انها الجمال الكامل .

وكانت نظرات ماريانكا تقول بوضوح :

ـ « نعم . . الا ترى الى اى حد انا جميلة ؟» .

ودون ان يعرف ماذا هو فاعل ، القى اولنين ذراعيه حول ماريانكا وحاول ان يقبلها ، ولكنها تخلصت منه بسرعة . واندفعت نحو الفرن وصدمت بلنسكى واسقطت الكاس من يده . وارتفعت الضحكات فى جوانب الغرفة ، وهمس بلنسكى شيئا فى آذان الفتيات . . فاندفعن معه الى باب الغرفة واغلقنه ووقفن معه خارجه ليمنعن ماريانكا من الخروج .

وسال اولنين قائلا :

ـ عجبا ؟ لماذا تسمحين لبلنسكى بتقبيلك ولا تسمحين لى ؟».

ـ اننى لا اريد هذا . . وهذا كل شىء .

ثم قطبت جبينها ورفعت راسها واردفت قائلة :

ـ انه « بابا » لنا جميعا .

ثم اتجهت نحو الباب المغلق ، وراحت تدق عليه بقبضتيها وهى تهتف قائلة :

ـ لماذا تغلقن الباب ايتها الشيطانات ؟».

وقال اولنين وهو يقترب منها :

ـ حسنا . . دعى الجميع خارج الغرفة . . ويكفى ان ابقى انا وانت فيها . . بمفردنا .

وتقطبت مرة اخرى جبينها ، ودفعته بعيدا عنها بقوة ، لم وقفت فى كبرياء وتحد مما جعل أولنين يسترد صوابه ويخجل من تصرفاته ويمضى الى الباب يدق عليه قائلا :

ـ بلنسكى .. افتح الباب ولنضع حدا لهذه الحماقات .

وفجاة اطلقت ماريانكا ضحكة عابثة وقالت :

ـ اذن فانت خائف منى !.

ـ نعم .. انك حادة الطبع مثل والدتك .

ـ حسنا .. اسمع ما ساقوله لك .. استمر فى انفاق وقتك كله مع العجوز ايروشكا .. وبذلك سوف يزداد حب البنات لك يوما بعد يوم .

وكانت قد اقتربت بوجهها من وجهه ، وركزت نظراتها فى عينيه وهى تبتسم . ولم يدر هو ماذا يقول ..

ولكنه تمتم متلعثما :

ـ ولنفرض انى جئت ذات يوم لزيارتكم .. فهل ...

فطوحت براسها وقالت :

ـ ان الامر عندئذ سيختلف .

وفى تلك اللحظة فتح بلنسكى الباب ، فوثبت ماريانكا بعيدا عن اولنين الا انهـا احتكت به وهى تثب .

وقال اولنين لنفسه بسرعة :

« لقد كنت اوهم نفسى بكل هذا الحب بينها وبين لبوكا .. انه مجرد وهم لااساس له .. وعلى من ثم أن اتصرف كما ينبغى حتى لاتفلت السعادة من يدى » .

وبسرعة مفاجئة للجميع ، طوق ماريانكا بذراعيه وقبل جبينها ووجنتها ، ولم تتراجع هى ، ولم تغضب . وانما انفجرت ضاحكة

واسرعت الى خارج الغرفة لتنضم الى الفتيات وبذلك انتهت السهرة .

* * *

قال اولنين لنفسه وهو في طريق العودة الى مسكنه ؟

ـ نعم .. اذا لم اقبض بيد من حديد على زمام عواطفي ، فمن المحتمل ان اقع في شرك الحب مع هذه العذراء القوزاقية الساحرة .

واوى الى فراشه وهذه الفكرة تراوده ، وكان يتوقع ان يتلاشى هذا الاحساس كله في الصباح ، ومن ثم يستانف حياته الهادئة الرتيبة كما كان يفعل من قبل . ولكن هذا لم يحدث . لقد تطورت علاقته بماريانكا : وبدا كانه الجدار الذى طالما فصل بينهما قد انهار ، واصبح اولنين قادرا على أن يتبادل معها عبارات التحية كلما التقى بهـا .

ولما اقبل والدها لياخذ ايجار الكوخ ، وكان قد علم بثراء هـذا النزيل المبسوط اليد ، اسرع ودعاه لزيارتهم . واستقبلته الأم العجوز في عطف وترحاب . ومنذ ذلك الحين اخذ يزور الاسرة ويجلس مع افرادها حتى ساعة متاخرة من الليل . وكانت حياته ـ ظاهريا ـ في القرية لاتكاد تختلف عما كانت عليه من قبل ، اما في الحقيقة ، او في اعماق نفسه ، فكان كل شيء قد اختلف الى حد بعيد . كان يقضي ساعات النهار كل يوم في الغابة ، ثم يعود في الثامنة الى مسكنه ، وبعد أن يغتسل ويفرغ من وجبة العشاء يمضي لزيارة اسرة ماريانكا ، بمفرده احيانا .. واحيانا مع الصياد العجوز ايروشكا . وسرعان ما تعودت الاسرة زيارته هذه بحيث اذا تخلف ليلة ، سأل عنه الوالد ، او الوالدة للاطمئنان عليه . وكان كريما مبسوط اليد في معاملاته ، وكان فانيوشا يحضر اليه في اثناء زيارته للأسرة : الشاى ، وكان هو يجلس في ركن الغرفة على حشية من الريش بجوار الفرن ، وكانت الأم العجوز تمضي في عملها بلا ازعاج .. ومع الشاى ، او النبيذ ، كانت الأحاديث تدور حول شئون القرية او اخبار الجيران .. واحيانا كان اولنين يجيب عن اسئلتهم ويخبرهم بما يعرف عن الحياة في روسيا وفي احيان اخرى

كان يأتى معه بكتاب ويقرأ . وكانت ماريانكا ـ كالغزال البرىّ ـ تقبع فى ركن آخر ، او فوق الفرن ، ولا تشترك فى الاحاديث .. ولكن اولنين كان يرى عينيها ووجهها ويسمع حركاتها وقزقزتها اللب القرع العسلى ، ويشعر انها تنصت اليه بكل كيانها كلما تحدث .. كما كان يحس بوجودها دائما كلماراح يقرأ كتابا لنفسه، وفى بعض الاحيان كان يخيل اليه أن نظراتها مركزة عليه ، فاذا التقت عيونهما سكن فى موضعه وركز نظراته عليها ، وعندئذ كانت تسرع وتشيح بوجهها فى ارتباك ، وبتظاهر بالاستغراق فى الحديث مع الام العجوز وان كان فى الحقيقة مرهف السمع الى كل حركة تبدو من ماريانكا منتظرا ان تعيد النظر اليه لكى تتلاقى عيونهما المرة بعد الاخرى.. فاذا حضر زائرون آخرون ، فانها تخرج من عزلتها وتشترك فى الاحاديث والضحكات ، وتغدو ودودا طروبا . وكان اولنين يشعر بسعادة بالغة كلما رأى بريق الرضا يلمع فى عينيها حين تلتقى به فجاة فى فناء الكوخ أو فى القرية .

وكان هو لايريد منها شيئا ، ولا ينتظر ان ينال شيئا .. ولكن احساسه باهمية وجودها فى حياته كان يزداد يوما بعد يوم .

ومن ناحيته هو فقد غدا يشعر انه اندمج فى الحياة القوزاقية اندماجا جعل ماضيه يبدو غريبا عنه . واما عن المستقبل ، فانه لم يكن يهتم اطلاقا باى مستقبل خارج حياته فى هذه القرية . ومن ثم كان يشعر باشد الاستياء والاستنكار كلما قرا رسائل اهله واصدقائه اليه .. تلك الرسائل التى يبكونه فيها ويعتبرونه مفقودا او ميتا ، هذا على حين كان يشعر فى قرارة نفسه أن هؤلاء الاقارب والاصدقاء هم المفقودون وهم الميتون ، لأنهم لاينعمون بهذه الحياة الزاخرة بالأمن والسلام ، التى يحياها فى القرية القوزاقية .

وكان واثقا تماما بانه ليس نادما على قطع كل الوشائج التى تربطه بحياته القديمة . ذلك لانه كان يستمتع بحياته العسكرية ، وبالصيد فى الغابة ، وبالحديث مع أيروشكا الصياد العجوز .. وبالقرب من ماريانكا ..

انه هنا يزداد مع كل يوم احساسا بالحرية وبالرجولة .. وقد ثبت له ان القوزاق يختلفون تماما عما كان يظن او يسمع . انهم ليسوا همجا او متوحشين ، وليسوا اشرارا او ابطالا .. وانما هم - كما عرفهم عن قرب - قوم يعيشون على الطبيعة - انهم يولدون ويموتون ، ويتزوجون وينجبون ، ويتحاربون ، وياكلون ويشربون ، ويمرحون ويتبادلون الحب .. كل هذا دون ان يفرض عليهم من القيود اكثر مما هو مفروض على مظاهر الطبيعة .. على الشمس ، والقمر ، على العشب والطل ، على الزهرة والثمرة .. انهم لايخضعون الا لقوانين الطبيعة .. ولهذا فهم - اذا قارنهم بنفسه - اجمل واقوى ، واكثر حرية ، وان النظر اليهم فيجعل اولنين يشعر بالاسف على نفسه .. وكثيرا ما كان يخطر بباله ان يبيع كل ممتلكاته .. وينضم للجيش القوزاقي بصفة نهائية ويشترى كوخا جميلا ومزرعة كبيرة ، وقطيعا من الماشية ، ويتزوج بفتاة قوزاقية « لا تكون ماريانكا التى يحبها لبوكا » ثم يمضى كل يوم مع ايروشكا لصيد السمك او الحيوانات والطيور البرية ، ويشترك مع القوزاقيين فى حملاتهم العسكرية .

وكثيرا ماكان يقول لنفسه :

- لماذا لا افعل هذا ؟ ماذا انتظر ، هل انا خائف من ان افعل الشيء الذى اراه معقولا وصوابا ؟ هل الرغبة فى ان اعيش ببساطة - مثل اى قوزاقى - فى حضن الطبيعة ، لا اوذى احدا وانما اسدى الخير للجميع .. هل رغبة كهذه تعتبر عملا طائشا او املا سخيفا مثل امالى الصبيانية السابقة فى ان اكون وزيرا او قائدا عاما للجيش .

ومع هذا كان يسمع فى قرارة نفسه صوتا يهمس له بوجوب التريث فى اتخاذ مثل هذه الخطوة . وكان هذا الصوت نابعا من تفكيره فى انه لايستطيع ان يحيا كما يحيا لبوكا او ايروشكا .. لان آراءه فى السعادة تختلف عن آرائهما .

كان رايه في السعادة انها لاتكتمل الا بانكار الذات والتضحية بالمصالح الشخصية والمآرب الذاتية من اجل الغير .. وان هدبنه التي قدمها لليوكا لكي يسهل له امر الزواج من ماريانكا قد ملأت قلبه بالرضى والسعادة . وانه من لم ليبحث عن الفرص التي تتيح له اسعاد الغير . ورغم لحظات الضعف التي كانت تغريه بان يعيش كما يعيش ليوكا او الصياد ايروشكا ، الا انه كان دائما يحلق في سماوات انكار الذات وينظر من مكانه الرفيع في هدوء واطمئنان الى الناس والى ماينبغي ان يفعل من اجل اسعادهم ا.

الفصل الثالث عشر

الخطبة

اقبل ليوكا راكبا جوادا لزيارة اولنين قبل موسم الحصاد بايام قليلة وبعد ان تبادلا التحية بمودة واخاء .

قال له اولنين :

ـ متى سيتم زواجك !.

ولم يجب ليوكا فورا .. وانما قال مشيرا الى جواده !

ـ اترى هذا الجواد الجديد الذى استبدلته بجوادك .. اليس رائعا ؟.

وفحص الاثنان الجواد الجديد ، وكان رائعا فعلا .. ولم يستطع اولنين ان يملك نفسه من الاعجاب به .. قائلا انه لم ير فى حياته جوادا احسن منه .

وربت ليوكا عنق الجواد وقال :

ـ وهو ذكى ايضا .. يتبعنى اينما سرت .. ولا يلحق به جواد آخــر .

ـ هل دفعت مبلغا كبيرا فى سبيل الحصول عليه ؟.

وابتســم ليوكا قائلا :

ـ اننى لاادرى .. لقد جاملنى فيه صديق .

ـ انه جواد رائع فعلا .. مدهش ، بكم تبيعه ؟.

ـ لقد عرضت على مائة وخمسون روبلا ثمنا له . ولكننى على استعداد لان اقدمه هدية خالصة لك .. اطلبه وانا اهبه لك .. ويمكنك ان تعطينى بدلا منه اى جواد عجوز عندك .

فهتف اولنين قائلا :

ـ لا .. لا .. اننى لااقبل هذا بحق السماء .

فتناول ليوكا من حزامه خنجرا من طراز فاخر وقدمه الى اولنين قائلا :

ـ اذن ارجو على الاقل ان تقبل هذا الخنجر هدية منى .. لقد ظفرت به من الضفة الاخرى من النهر .. من بلاد التتر .

ـ شكرا جزيلا ياصديقى .

ـ وقد وعدت امى ان تقدم اليك كمية كبيرة من العنب عند الحصاد ..

ـ لاداعى لذلك .. لسوف نسوى كل شىء بيننا يوما .. لكن اننى لن أدفع لك ثمنا لهذا الخنجر .. اليس هذا ماتريد ؟.

ـ نعم .. نعم ، اننا صديقان حميمان ، تماما كما هو الشأن مع صديقى جيرى خان . لقد اخذنى الى بيته وطلب منى ان اختار اية هدية اريد وقد اخترت سيفا تتريا من النوع القصير .. الممتاز .

ودخل الاثنان الكوخ ليشربا بعض النبيذ .

وقال اولنين :

ـ هل ستمكث هنا طويلا ؟.

ـ لا .. لقد جئت لاودعك فقط . انهم سيقومون بحملة عسكرية عبر نهر تيريك وسنمضى الليلة ، وسيكون صديقى نازار معى ..

ـ ولكن ماذا عن الزواج ! متى سيتم ؟.

فرد ليوكا فى غير اهتمام :



ـ لسوف احضر في اجازة قصيرة لاتمام الخطبة . . ثم اعود الى فرقتي . .

ـ ولكن . . الن تذهب لزيارة فتاتك اليوم ؟ .

ـ وما فائدة هـذا ؟ حســنا ! عندما تقوم مع فرقتك بحملة عسكرية عبر النهر ، فلا تنس أن تسال عن ليوكا . . ليوكا الشجاع وعندئذ سوف اصحبك الى رحلات لصيد الخنازير البرية ، انني اعرف مواطنها .

ـ حسنا ياليوكا . . وداعا ، وليكن الحظ معك .

واعتلى ليوكا ظهر جواده ، وانطلق في الشارع دون ان يلقي نظرة على كوخ ماريانكا . . ولم يلبث أن انضم الى صديقه نازاراالذي كان في انتظاره .

وقال نازار وهو يومىء براسه الى كوخ يامكا ، صاحبة الحانة:

ـ هه ، ماراك ؟ . . هل ندخل ؟ .

ـ آه . . لاباس . . خذ جوادي هذا اليها ، واذا لم احضر بسرعة : يمكنك أن تقـدم له بعض العشـب . . ولســوف انضم الى الفرقة غدا صباحا .

ـ وماذا عن صاحبنا الروسي . . هل ظفرت منه بشيء جديد ؟ .

ـ لا . . وقد نجوت لحسن الحظ بجوادي منه . . كان يريد ان ياخـــذه .

ثم ترجل عن الجواد ، وسلم عنانه لنازار قائلا :

ـ اذهب به الى يامكا . . اما انا فسوف امضي اولا الى ماريانكا .

وتســلل ـ دون ان يراه احد ـ عائدا الى نافذة كوخ ماريانكا ؟ وهناك راها في الغــرفة الامامية واقفة امام المرآة تتزين استعدادا للنـــوم . .

وهمس لها قائلا :

ـ ماريانكا . . انني ليوكا .

واشرق وجه ماريانكا بالسعادة حين سمعت صوته ، واسرعت الى النافذة ورفعت مصراعها ، وهمست قائلة في خوف ولهفة :

ـ آه .. ماهذا ؟ ماذا تريد يا ليوكا ؟

ـ اسمحي لي بالدخول لحظة واحدة .. انني اكاد اموت شوقا اليك .. لم يعد في مقدوري الصبر اكثر من هذا .

ثم جذب راسها من النافذة وقبلها بحرارة قائلا في همس :

ـ افتحي لي الباب .. ارجوك .

ـ انك تضيع وقتك سدى .. منذ متى وانت تنتظر ؟

ولم يجب .. وانما استمر في تقبيلها .. وكان يهمس في لهفة :

ـ اترين ؟ انني عاجز حتى عن عناقك بسبب ضيق هذه النافذة .

وعندئذ سمع الاثنان صوت الام العجوز وهي تقول :

ـ ماريانكا ! مع من تتحدثين ياحبيبتي ؟

ورفع ليوكا قلنسوته التي قد تكشفه .. وقبع تحت النافذة في سكون ، على حين همست له ماريانكا قائلة :

ـ انصرف .. بسرعة .

ثم رفعت صوتها وقالت لامها :

ـ انه ليوكا يا اماه .. كان يريد ان يرى ابي .

ـ حسنا .. دعيه يدخل .

ـ لقد انصرف .. قال ان وقته ضيق .

ومضى ليوكا بعيدا ، وهو لايزال منحنيا ، واتجه نحو كوخ يامكا دون ان يراه احد غير اولنين . وفي كوخ يامكا ، شرب مع نازار زجاجة او اثنتين من النبيذ الأحمر قبل ان يخرجا من القرية . ومضى الاثنان في طريقهما يرفرف عليهما الصمت ، وفجاة رفع ليوكا عقيرته بالغناء .. وبعد ان فرغ من الفقرة الأولى ، اتجه الى نازار وقال له :

ـ اتعرف ! لقد ابت ماريانكا ان تسمح لي بالدخول .

ـ اوه .. كنت اتوقع هذا . لقد قالت لي يامكا ان صاحبنا الروسي بدأ يزور اسرتها وان ابروشكا العجوز يشيع في القرية

انه سيظفر من الروسى ببندقية جديدة عندما يساعده على الظفر بقلب ماريانكا .

فصاح ليوكا قائلا فى غضب :

ـ آه ، تبا لذلك الشيطان العجوز .. انها ليست فتاة من هذا النوع .. وعلى ذلك الروسى ان يحذر ، والا حطمت ضلوعه .

ثم انطلق يردد اغنيته المحبوبة :

« من قرية اسماعيلوف ..
« ومن بستان السيد المحبوب ..
« طار ذات يوم ـ بازى ـ خفيف الجناح ..»
« ومن ورائه أسرع الصياد الشاب ..
« وراح يلوح للبازى الجميل بيده اليمنى .»
« ولكن البازى الجميل اجاب قائلا :
« ان قفصك الذهبى لن يضمنى ابدا .»
« وان يدك اليمنى لن تمسك بى ابدا .
« وانما انا ساطير حرا الى البحر الازرق .
« وهناك ساظفر ببجعة بيضاء .. بيضاء ..»
« ومن لحم البجعة البيضاء ، ساملأ معدتى »

***

واقيم الاحتفال بالخطبة فى بيت والد ماريانكا . وكان ليوكا قد حضر فى اجازة قصيرة الا انه لم يذهب لزيارة أولنين .. ولم يذهب اولنين ليشهد الاحتفال بخطبته على ماريانكا وذلك برغم انه كان احد المدعوين اليه .. كان يشعر بالحزن يعتصر قلبه .. ومن ثم اغلق باب الغرفة على نفسه ، وراح يكتب فى مفكرته :

« لقد فكرت فى اشياء كثيرة فى الآونة الاخيرة ، ولكننى برغم تفكيرى هذا لم اتزحزح عن ايمانى بان الطريق الوحيد الى السعادة الحقة الكاملة هو ان يحب الانسان ، ان يحب ويحب منكرا ذاته ..» ان يحب كل الناس .. وكل شىء .. أن يظلل بالحب كل الذين حوله .. وقد ظللت بالحب فانيوشا ، وايروشكا ، وليوكا ، وماريانكا

وما كاد يفرغ من عبارته الاخيرة ، حتى اقبل عليه الصياد العجوز ابروشكا وهو فى حالة انتشاء ، حاملا معه آلة البلالايكا الموسيقية ، فلما راى اولنين مشغولا بالكتابة قال له هامسا كأن هناك روحا ترفرف على الغرفة :

ـ استمر فى الكتابة باولدى .. وسأجلس انا على الارض بجانبك فى صمت ..

وامر اولنين تابعه فانيوشا باحضار بعض النبيذ الاحمر لابروشكا ، ولكن الصياد العجوز لم يكن راغبا فى الشرب بمفرده وانما كان ملهوفا الى التحدث مع شخص ما وهو فى هذه الحالة من النشوة .

وهمس قائلا :

ـ لقد ذهبت الى الحفلة .. ولكن جوها لم يعجبنى .. انهم لخنازير جميعا ، ولهذا فضلت الحضور اليك .

وقال له اولنين وهو لايزال يكتب :

ـ من اين جئت بالبلالايكا ؟

ـ كنت فى الضفة الاخرى من النهر ، وحصلت عليها من أخ لى هناك . لننى بارع فى العزف عليها .. ويمكننى ان اغنى عليها الاغانى القوزاقية او التترية .. اغانى السادة او الرعاع .. استطيع ان اغنى عليها اية اغنية تريدها .

ورفع اولنين راسه وابتسم .. وشجعت ابتسامته الصياد العجوز ، وجعلته يقول :

ـ دعك من الكتابة الآن باولدى .. اننى اعرف انهم جرحوا مشاعرك . وماذا يهم اضحك فى وجوههم وانس كل شىء .. ولكن لاجدوى من هذه الكتابة ..

وضحك اولنين ، وشاركه ابروشكا فى الضحك ، ثم وثب وتناول آلة البلالايكا ، وراح يردد عليها هذه الاغنيه التترية :

« اننى وقعت فى الحب يوم الاثنين .

« وتعذبت طوال يوم الثلاثاء .

« وقدمت السؤال يوم الاربعاء »
« وانتظرت طوال يوم الخميس »
« وجاءت اجابتها يوم الجمعة »
« وضاع كل امل لى »
« وقررت بكل عزم وقوة ..
« ان انهى حياتى يوم السبت »
« ولكننى غيرت رايى يوم الاحد »

***

واندفع ابروشكا فى الغناء ، وارتفع صوته عاليا ، ومضى الى الفناء الكبير ، وكان كوخ أسرة ماريانكا مضاء ، واصوات المحتفلين وضحكاتهم تنساب منه ، وكانت ثمة فتيات كثيرات يتحلقن فى الفناء الصغير الداخلى أو يدخلن الى مكان الاحتفال او يخرجن منه .

واطلق بعض القوزاق طلقات نارية فى الهواء احتفالا بالخطبة ، واندفع بعضهم الى فناء كوخ اولنين وراحوا يرقصون رقصات قوراقية عنيفة على غناء ابروشكا ونغمات البلالايكا .

وقال له اولنين :

ـ لماذا لم تذهب للحفلة .

فقال العجوز بصوت الانسان المتألم من شىء :

ـ دعك منهم .. دعك منهم .. اننى لم استرح اليهم . هلم ندخل الكوخ ونحتفل معا احتفالا خاصا .

وفى داخل الكوخ قال اولنين :

ـ كيف حال ليوكا ؟ .. اهو سعيد ؟ .. لماذا لم يات لزيارتى ؟ » فدمدم الرجل العجوز قائلا :

ـ ليوكا ! اتعرف ماذا قالوا له ، قالوا اننى احاول ان اقدم فتاته لك . وكانما ليس فى القرية فتاة اجمل منها . وفى مقدورنا ان نحصل عليها اذا شئت .. ادفع مبلغا اكبر مما دفعه ليوكا وسوف يزوجها ابوها منك . ويمكننى ان اقوم لك بهذه الخدمة اذا شئت »

ـ لاياصديقى العزيز .. ان المال لايستطيع أن يفعل شيئا اذا لم تكن تحبنى .. دعنا من الحديث عن هذا الموضوع .

وانفجر العجوز ايروشكا ، فجأة بالبكاء وهو يقول :

ـ نعم .. نعم .. انك على حق .. انهم لايحبوننا نحن المساكين التعيسين .. لا احد يحبنا .

وشرب اولنين فى تلك الليلة أكثر من المعتاد وهو ينصت الى احاديث الصياد العجوز التى لاتنتهى . وكان بين الحين والآخر يقول لنفسه فى شيء من العزاء :

ـ يكفى ان يكون الحبيبان سعيدين .

ولكن الالم الخفى كان يعتصر قلبه .. وقد حاول جاهدا ان يخفف من الالم بالمزيد من شرب النبيذ الاحمر .. وكلما شعر بثقل راسه قال لنفسه مواسيا :

ـ ان السعادة الحقة هى انكار الذات من اجل الغير .

وانتهز الصياد العجوز تلك الفرصة السانحة ، فراح يعب من الشراب بلا حساب .. وما لبث ان سقط فاقد الوعى على ارض الكوخ .

وحار فانيوشا فى امره ، ولم يدر كيف يستطيع التخلص منه بمفرده : لان سيده اولنين لم يكن ، من جانبه ، فى حالة تسمح له بمعاونته . ومن ثم استدعى بعض الجنود . وسحبوا الصياد العجوز الى خارج الكوخ ، وعبر فانيوشا عن استنكاره بالبصق على الارض قبل ان يعود الى غرفته للنوم .



كان محصول الكروم فى ذلك العام وافرا ، ومن ثم كانت الفرحة تملأ قلوب سكان القرية وهم يجمعون الأعناب ، ويتبادلون الاحاديث ويملئون الجو ضحكا وغناء .

وفى ظهر ذات يوم كانت ماريانكا جالسة فى ظل شجرة خوخ، تفك لفافة وجبة غداء الاسرة بعد ان تناولتها من المركبة . وامامها وعلى مفرش من الجلد ، جلس والدها الذى اخذ اجازة من عمله . . يغسل يديه من ابريق نحاسى ، وشقيقها الاصغر الذى عاد من البحيرة الصغيرة بعد ان غسل فيها وجهه ، والام العجوز وقدشمرت عن ذراعيها وراحت تاخذ من ماريانكا الوان الطعام وترتبها على مائدة منخفضة مستديرة ، وكان الطعام مكونا من عناقيد العنب ، والسمك المجفف ، وبعض شرائح اللحم القديد والقشدة والخبز . وجفف الوالد يديه ، وجلس متربعا امام المائدة ، وشرب الغلام من الابريق الى شراهة ، وتربعت الام والابنة الى الجانب الآخر من المائدة . . وكان الجو حارا خانقا ، والهواء الساخن المندفع بين اعواد الكروم يزيده حرارة . وشرب الوالد بعض النبيذ من الابريق ، ثم قدمه الى الام ، وبعدها الابنة ، ثم الابن . .

وقال الوالد فى لهجة تنم عن الغبطة والرضا :

ـ ترى هل سنستطيع جمع المحصول من الكرمة التى وراء الظلة قبل هبوط الليل ؟.

فقالت زوجته :

ـ يمكن اذا لم تسقط الامطار .. وعلى كل حال فان آل ديمكين لم يجمعوا بعد نصف محصولهم واوستنكا تعمل بمفردها وتكاد تموت من فرط الارهاق .

ـ وماذا كنت تنتظرين غير هذا !.

وقالت الام العجوز وهى تقدم ابريق النبيذ لابنتها :

ـ اشربى ياحبيبتى .. واسال الله ان يرزقنا بتكاليف حفلة زواجك .

فقال الوالد وهو يقطب جبينه قليلا

ـ لايزال فى الوقت متسع للتفكير فى هذا الامر .

واطرقت ماريانكا براسها .. على حين قالت الام فى اصرار ؟

ـ ولماذا لا نتحدث عنه الآن لقد تم كل شىء .. ولم يبق الا ان نفكر فى نفقات التنفيذ .

ـ لاداعى للتفكير فى المستقبل . علينا اولا ان نفرغ من جمع المحصول .

وقالت الام العجوز :

ـ هل رايت جواد ليوكا الجديد؟انه ليس الجواد الذى اهداه له نزيلنا .. وانما هو جواد آخر ..

فقال الوالد :

ـ لا .. لم اره بعد . ولكننى تحدثت اليوم مع فابيوشا التابع وعلمت منه ان سيده تلقى الف روبل مرة اخرى .

فاومات المراة العجوز براسها قائلة :

ـ انه مجسوع من المال .. لاشك فى ذلك .

وكانت الاسرة كلها تشعر بالسعادة والرضا ، اذ كان العمل يجرى باطراد وكان المحصول وافرا والعنب من صنف ممتاز .

وبعد الفراغ من طعام الغداء ، وضعت ماريانكا كمية من العشب امام الثيران ثم استلقت في ظل المركبة ، ونامت تستريح في فترة القيلولة ولكنها لم تستغرق في النوم فورا : وانما راحت تفكر في ليوكا ، وفي يوم الزفاف ، ودهشت حين وجدت نفسها لا تتعجل هذا اليوم .. ولم تلبث ان ادركت السر في هذا .. ادركت انها سعيدة باهتمام اولنين بها .. سعيدة بنظراته التي تنم عن حبه الكبير لها ..

فلماذا تتعجل الزواج من ليوكا !!.

***

وقبل ان تستغرق في النوم ، اقبلت صديقتها اوستنكا اليها ورقدت بجوارها في ظل المركبة ، ثم اذا هي تعانقها وتضحك قائلة:

ـ ماريانكا .. اتعرفين لماذا جئت اليك ؟.

فاعتمدت ماريانكا على مرفقها ورفعت راسها قليلا وقالت :

ـ لا .. لماذا ؟!.

ـ انني اعرف شيئا عن نزيلكم اولنين .

ـ وماذا تعرفين ؟.

ـ هل ياتي لزيارتك ؟.

ـ وماذا لو انه ياتي ؟.

ـ اوه .. لا تغضبي مني يا ماريانكا . انني فتاة بسيطة وصريحة ولا اوذي احدا . لهذا اقول انني احبه .. احبه .

ـ من ؟ بابا بلنسكي !.

ـ نعم .. طبعا .

ـ ولكن هذه خطيئة يا اوستنكا .

ـ لا يا ماريانكا .. ان هذه هي الفرصة الوحيدة للاستمتاع بحياتي قبل الزواج . لانني بعد الزواج ساكون مشغولة بالزواج والاولاد واعباء البيت . انظري الى نفسك انك تنتظرين الزواج من ليوكا دون أن تستمتعي بحياتك ..

فقالت ماريانكا :

ـ ان هناك نساء كثيرات يجدن السعادة الحقة في الزواج .

ـ ارجوك ان تصارحينا يا ماريانكا .. ماذا حدث بينك وبين لبوكا .

ـ لم يحدث بيني وبينه شيء . لقد تقدم لخطبتي ، وارجا ابي الموافقة لمدة عام واخيرا تمت الخطبة ، وسوف يتم الزواج في الخريف القادم .

ـ ولكن ماذا قال لك ؟.

فابتسمت ماريانكا وقالت :

ـ وماذا يمكن ان يقول لي ! قال انه يحبني ، وظل يلح على لكي اذهب معه الى بستان الكروم .

ـ آه .. ذلك الخبيث ! وهل ذهبت معه ؟ انه شاب ممتاز على كل حال . وهو شجاع وجرىء . ويقولون انه يستمتع بحياته في الجيش ، ولكن المعروف انه يحبك اشد الحب .. وماذا ايضا .. ماذا قال لك ايضا ؟.

فضحكت ماريانكا وقالت :

ـ لا شيء اكثر مما تعرفين . ولكنه جاء ذات ليلة الى نافذة غرفتي وكان مخمورا ، وطلب مني ان اسمح له بالدخول .

ـ وهل سمحت له ؟.

ـ لا طبعا . انني حين اقرر شيئا لا اتراجع عنه.

ـ ولكنه شاب رائع .. واية فتاة ترحب بطلبه .

فردت ماريانكا قائلة بكبرياء :

ـ اذن ليذهب الى هذه الفتاة ..

ـ الا تشعرين بالاسف من اجله ؟.

ـ بلى اشعر .. ولكنني لااحب ان اترك احدا يعبث بعواطفي. الا ترين هذا .

فأخفت استنكا وجهها في صدر ماريانكا ، وقالت هامسة :

ـ انك فتاة باردة العواطف .. انك لاتريدين أن تشعري بالسعادة .

ثم اردفت قائلة وهي « تدغدها » وتضحك :

ـ ولكنك فتاة سعيدة الحظ ، ان جميع الشبان يهيمون بك حبا ، ولكنك لا تهتمين بأحد منهم . ولو كنت في مكانك ، للعبت بعواطف ذلك الروسي الثري .. اولنين .. انه يحبك ويكاد يأكلك بنظراته . لو انك ترين الهدايا الجميلة التي يقدمها بابا بلنسكي الى !! ان اولنين اوفر ثراء منه . ويقال انه اغنى رجل في روسيا وان تابعه فانيوشا يقول ان لديه مئات من عبيد الأرض .

وانتصبت ماريانكا قائلة :

ـ اتعرفين ماذا قال لي يوما ؟ انني اتمنى لو كنت خطيبك ليوكا او اخاك لازونكا .. فماذا كان يعني بقوله هذا ؟.

ـ اوه .. انه يقول اي شيء يخطر بباله . تعالي واسمعي ما يقوله لي بابا بلنسكي .

وعادت ماريانكا ورقدت لتنام وهي تقول :

ـ لقد طلب ان يأتي ويساعدنا في جمع المحصول . وقد رحب ابي به . . وسوف يأتي اليوم .

***

سقطت اشعة الشمس عند ميلها في سمت الاصيل ، على وجهي اوستنكا وماريانكا الراقدتين في ظل المركبة . ولما استيقظت الفتاتان ، وراحت ماريانكا تنظر حولها رأت عند شجرة الكوخ نزيلهم اولنين واقفا يتحدث الى ابيها والبندقية على كتفه ولكزت اوستنكا في جانبها واشارت اليه باسمة دون أن تقول شيئا .

وكان اولنين يقول وهو ينظر حوله في لهفة دون ان يرى ماريانكا بسبب تكاثف اعواد النبات :

ـ لقد ذهبت امس ولكنني لم ار واحدا منها .

ـ اوه .. لاشك أنك لم تذهب الى المكان الذي وصفته لك ؛ لان هذا المكان مملوء بالارانب البرية .

وفجأة قالت الام العجوز ضاحكة :

ـ وسمس .. ايليق ان تجرى لصيد الارانب دون ان تاتى لـ اعدء الشاب فى جمع المحصول ..!

ثم زدعت بصوت مرتفع تقول :

ـ هلم يا شباب الى العمل! ..

وكانت ماريانكا واوستنكا تتهامسان بجوار المركبة وتضحكان بصوت خافت حتى لا يعرف اولنين مكانهما . وكان الوالد يــودد الى الروسى الشاب منذ عرف بأمر الهدية التى قدمها الى ليوكا .. اى الجواد الذى يبلغ ثمنه اربعين روبلا .. وكان يزداد سرورا كلما راى وشائج المودة تزداد بين الشاب الروسى الثرى وبين ابنتــه ماريانكا .

وقال اولنين وقد لمح ثوب ماريانكا الازرق ومنديلها الاحمر :

ـ ولكننى لا اعرف كيف اقوم بالعمل معكم .

وقالت الام العجوز :

ـ تعال لاقدم لك بعض الخوخ .

وقال الوالد :

ـ دعك من هذه المراة الحمقاء . انها تريد أن ترحب بك على الطريقة القوزاقية ولكنكم فى روسيا تقدمون لضيوفكم مربى الكمثرى وما الى هذا من الحلوى المطهوة .

ـ لا .. لا شكرا . اننى افضل ان اعمل معكم اولا فى جمع العنب .

وبدا ولنين يعمل ، وانتهز اول فرصة انفرد فيها بماريانكا وقال لها وهو يحاول السيطرة على نبرات صوته :

ـ هذا العنقود لا يزال اخضر وان كان يزن اكثر من ثلاثة ارطال

ـ ولكننا نقطعه ..

ـ ولكن من اين .. هل من هذا العرق ؟.

واخذت ماريانكا تعلمه كيف يقطع العنقود الكبير وتلامست ايديهما ، ونظرت اليه باسمة ، وقال لها :

ـ متى سيتم الزواج ؟.

فنظرت اليه في شيء من الحزن ، ثم اشاحت بوجهه دون أن تجيب .

وعاد هو يقول :

ـ هل تحبين ليوكا .

ـ وما شانك بهذا ؟.

ـ انني احسده .

ـ احقا ؟.

ـ نعم .. انك جميلة جدا ..

وامسك بيديها فجاه وقد اضطرم وجهه وخفق قلبه بشدة وركز نظراته عليها اما هي فقد قالت بهدوء

ـ ايا كان الامر ، فانني لست من نصيبك .

ثم اردفت قائلة بعد برهة صمت :

ـ فلماذا تسخر مني ؟.

ولكن عينيها كانتا تقولان بوضوح انها تعتقد تماما انه لا يسخر منها ، وانما هو جاد في حبه لها .

وقال هو باضطراب :

ـ اسخر منك !؟.

ثم تنهد بعمق واستطرد قائلا :

ـ آه .. لو انك تعلمين ..

وشعر ان عبارته هذه سطحية ولا تتفق مع حقيقة شعوره ، ومن ثم عاد يقول بحرارة :

ـ انني على استعداد لان افعل من اجلك اي شيء .

ـ اوه .. دع يدي ايها الشاب الماكر .

ولكنها باضطرام وجهها ، وتألق عينيها ، وخفقان صدرها الجميل ، كانت تقول له شيئا آخر . واحس اولنين انها كانت منذ مدة طويلة تعرف ماذا يريد ان يقول لها ، ولكنها كانت تهفو لأن تسمع منه كيف يمكنه الاعراب عن عواطفه نحوها .

وقبل ان يقول لها شيئا ، اذا باوستنكا تقول ضاحكة وهي واقفة عند كرمة قريبة :

ـ انت .. هناك .. اولنين .. تعال وساعدني .. انني اعمل بمفردي منذ الصباح .

ولكن اولنين لم يرد ولم يتحرك من مكانه .

وعادت ماريانكا الى عملها في جمع عناقيد العنب . وكانت بين الحين والآخر ترفع وجهها الى أولنين وتبتسم . واراد هو ان يقول شيئا ، ولكنه هز راسه وقرر ان يلتزم الصمت .

ولما اوشكت الشمس ان تغيب ، حمل بندقيته على كتفه ، واستدار خارجا بسرعة من الكرمة ، وضحكات اوستنكا وماريانكا ترن في اذنيه .

الفصل الخامس عشر

عذابات الحب

امضى اولنين فترة الغروب فى الغابة محاولا اصطياد شيء ؛ ولكنه لم يوفق ، وحين عاد الى مسكنه ، راى ماريانكا فى الفناء وهى تقوم بأعمالها المعتادة قبل ان تدخل كوخ الأسرة لتناول العشاء، ومضى هو الى كوخه ، وجلس يفكر فيما ينبغى أن يفعل . واخيرا تناول عشاءه ، وترك فانيوشا ليمضى الى فراشه ، ثم جلس فى الشرفة غارقا فى تأملاته بعد ان هدأت الحركة فى القرية . وكان بين الحين والآخر يسأل نفسه :

ـ ماذا اريد ؟ وماذا ينبغى أن افعل .

وكلما سمع وقع خطوات خفيفة فى الفناء ، أسرع واطل برأسه وكان يرى فى كل مرة طرفا من ثوب ماريانكا وهى تسرع بالعودة الى الكوخ . وكان قد عرف ـ بالسمع ـ أن والديها قد فرغا من العشاء ، ومن تبادل الأحاديث ، وانهما أويا الى فراشهما .

واستجمع شجاعته فى النهاية ، وسار على اطراف اصابعه ؛ وفتح باب كوخ اسرة ماريانكا ، واختلس نظرة الى الداخل ، ولما رأى أن ماريانكا لا تزال مستيقظة ، أسرع متراجعا ، وعندئذ سمع صوت رجل قوزاقى يقول وهو فى الفناء :

ـ ما هذا .. ماذا يجرى هنا ؟.
ثم رأى نازار يتقدم نحوه ويردف قائلا !
ـ شيء جميل جدا .. لقد رأيتك بنفسي هذه المرة ، ولسوف أبلغ الأمر الى شيخ القرية .
وتسمر اولنين في مكانه عاجزا عن الرد . وعاد نازار يقول :
ـ وساخبر والدها ايضا . كيف تسمح هذه الفتاة بتسللك الى كوخها . الا يكفيها خطيب واحد ؟.
واستطاع اولنين ان يقول في النهاية :
ـ ماذا تريد منى ؟ والى اى شيء تهدف ؟.
ـ لا شيء .. ولكننى ساخبر القرية كلها بما رأيت .
وكان نازار يتحدث بصوت مرتفع عن عمد ، مما جعل اولنين يرتعد ويقول له وهو يمسك بذراعه ويجذبه نحو الكوخ :
ـ تعال معى هنا .. انك تعرف انه لم يحدث شيء .. انها ابت ان تسمح لى بالدخول . وانا لم اكن اقصد شيئا . انها فتاة شريفة .
فرد نازار ساخرا !
ـ سوف ترى هذا .
ـ ولكننى ساعطيك مبلغا من المال على كل حال . انتظرني هنا .
واسرع اولنين الى كوخه ، ولم يلبث ان عاد ومعه عشرة روبلات قدمها لنازار وهو يقول :

ـ لا شيء حدث على الاطلاق . وانت تعرف هذا . ولكننى اخطأت التصرف على كل حال ، وانى اقدم اليك هذا المبلغ حتى لا تخبر احدا بما رأيت .
وضحك نازار وقال وهو ينصرف بعد ان دس المبلغ فى جيبه !
ـ حسنا جدا .
وكان نازار قد عاد الى القرية فى تلك الليلة ليقوم بمهمة من اجل لبوكا ، او على الاصح ، ليبحث عن مكان يخفى فيه جوادا مسروقا . وفيما هو يمر بالشارع رأى اولنين فى اثناء محاولته فتح باب كوخ ماريانكا . وفى اليوم التالى راح يزهو امام صديقه لبوكا بما فعل ، وبما ظفر به من مال اولنين .

***

وفي ذات ليلة ، جلس اولنين مسهدا غارقا في افكاره وهمومه ، ومن ثم لجا الى مفكرته يكتب فيها خواطره واحساساته وظل مشغولا بالكتابة حتى اوشك الفجر ان ينبلج . وقد اختتم مذكراته في تلك الليلة بهذه العبارات :

« ان انكار الذات مبدأ عقيم لا جدوى منه .. انه لون من الكبرياء ، وملاذ من الاحساس بالشقاء ، وتخلص من الغيرة التي تملأ النفس من سعادة الآخرين ، اذ كيف يعيش الانسان لغيره ويعمل صالحا وهو معذب بحب فتاة ما ، ممتلىء النفس بالرغبة في الحياة معه ؟ انني الآن لا اريد السعادة لغيري ولا لليوكا ، انني اريدها اولا لنفسي ، انني احبها واتعذب بحبها ، ومن العار ان اتركها لانسان غيري اذا كان في مقدوري أن اظفر بها،واذا كانت هي تبادلني الحب فعلا .. ان الحب اقوى من كل شيء .. وان الانسان وهو على قيد الحياة لابد ان يسعى الى السعادة بقدر ما يستطيع . ومن ثم ساذهب اليها واصارحها بكل شيء .

***

وذهب اليها في مساء اليوم التالي .. كانت جالسة على الفرن عارية الراس تخيط ثوبا حريريا على ضوء سراج . وكانت امها جالسة على متكأ بجوار الفرن تغزل خيوط الحرير من شرانق ديدان الحرير ، ولما رأته ماريانكا ، وثبت من فوق الفرن وأسرعت تعصب راسها بمنديلها ، ثم حاولت العودة الى ظهر الفرن عندما قالت لها امها :

ـ ماذا بك .. ابقي معنا هنا

ـ لا .. لا استطيع يا اماه .

ولم يستطع اولنين في جلسته ان يرى غير جزء صغير من جسمها وراح يتبادل الحديث مع الام العجوز التي رحبت به اجمل ترحيب . وقدمت له الزبيب وفطائر العنب وبعض النبيذ الجيد ، واخذت تحثه على الطعام والشراب . وكانت المرأة العجوز تبدو

لأولنين على جانب كبير من الرقة والحنان بعد ان تغلب على صدمة لقائها الاول له .

وقالت في معرض الحديث :

ـ اننا نحمد الله . . فكل شيء ميسور لنا . . لدينا حاجتنا من الطعام والشراب ويفيض عندنا من النبيذ هذا العام نحو ثلاثة أو اربعة براميل يمكن بيعها وانفاق ثمنها في حفلة زواج ماريانكا . . ونرجو ان تشترك معنا في مباهج هذه الحفلة .

وخفق قلب اولنين بعنف وقال والدماء تلهب وجهه !

ـ ومتى ستكون هذه الحفلة ؟.

ـ ربما في الاسبوع القادم . اننا مستعدون لكل شيء . ونرجو أن يستقر ليوكا بعد الزواج ويستقيم حاله . لقد سمعنا انه يقوم باغارات على هضاب نوجاي ولاشك ان هذا سيعرضه للمخاطر .

ـ نرجو الا يقع في قبضة التتر . والواقع انني رأيته في القرية يسرف في شرب الخمر ، كما سمعت أنه باع مرة اخرى جوادا مسروقا من هضاب نوجاي .

وشعر اولنين بالخجل حين رأى ماريانكا تنظر اليه بغضب وتقول بصوت كله التحدي :

ـ وماذا في هذا ؟ ان ليوكا يشرب كغيره من الشبان ، وهو يدفع ثمن شرابه من ماله . ولا تنس انه لا يتسبب في ايذاء احد .

ثم وثبت عن ظهر الفرن ، وغادرت الغرفة واغلقت الباب وراءها بعنف وشيعها أولنين بنظراته ، وقد سره انه اثار في نفسها الانفعال .

***

ووجدها في مساء اليوم التالي بمفردها في الكوخ تستعد للنوم ، وكانت امها مشغولة في حظيرة المواشي ، فقال لها في صوت ملهوف :



ـ ماريانكا .. الا ترحمينني ؟ انني لا استطيع ان اهرب لك من مبلغ حبي .

فتراجعت عنه قليلا وتمتمت قائلة :

ـ دعك من هذه الاحاديث الرخيصة . وتأكد انك لن تستطيع ان تنال مني شيئا .

ـ انني جاد فيما اقول .. لا تتزوجي ليوكا .. سوف اتزوجك انا .

« وقال لنفسه : ويحي .. ماذا اقول ؟ هل يمكنني ان اقول هذا غدا وبعد غد ؟! نعم .. نعم .. انني واثق من اني احبها واتمنى الزواج بها » .

وقالت هي في دهشة وامفة وقد زايلها الخوف :

ـ اتريد ان تتزوجني حقا ؟! .

ـ نعم يا ماريانكا .. انني اهيم بك غراما واكاد افقد عقلي .. انني سافعل كل ما تامرينني به .

ولم تبتعد عنه هذه المرة ، وانما مدت يديها ، واخذت بينهما يده الرقيقة الممتدة اليها ، وهمست قائلة بصوت حالم :

ـ لا تكن احمق يا عزيزي .. هل سمع احد من قبل ان سيدا عظيما مثلك تزوج فتاة قوزاقية فقيرة ؟ .

ـ ماريانكا .. انني احبك ، وهذا يكفي .. وسوف احقق لك ..

ثم بسط ذراعيه ليطوقها ، ولكنها تخلصت منه وانفلتت كالغزال الشارد وهي تضحك .

وعاد الى كوخه في تلك الليلة ، واستغرق في نوم عميق وقد امتلا قلبه رضا عن نفسه وعن الحياة .

الفصل السادس عشر

ليلة المهرجان

كانت القرية تحتفل بمهرجان الحصاد في الميدان الكبير الذي يتوسطها وكان الشبان والفتيات يرقصون ويغنون بملابسهم الوطنية ويتبادلون الوان الحلوى ، ويشربون النبيذ الاحمر ، وكانت اوستنكا تستضيف في كوخها المطل على الساحة صديقها بلشكى وصاحبه اولنين . وكان ليوكا وصديقه نازار قد عادا الى القرية ليشتركا في الاحتفال ، وكان ليوكا اكثر الشبان رقصا وغناء . ولما راى اولنين في نافذة كوخ اوستنكا ، اوما له براسه ، وقال له :

ـ هلم يا ديمترى واشترك معنا في الاحتفال .

فقال له اولنين بشيء من الجفاء :

ـ سوف احاول .

وهمس بلشكى شيئا في اذن اوستنكا . وسرعان ما اسرعت الى الساحة ثم عادت ومعها ماريانكا التي وقفت خارج النافذة تبتسم لاولنين . فقال هذا لها :

ـ ادخلى يا ماريانكا .. ارجوك .. انني اريد ان اتحدث اليك في امر مهم .

فاقتربت منه وقالت :

ـ ماذا تريد ان تقول ؟ .

ـ اريد ان اسمع منك الاجابة عن سؤالى .

ـ اى سؤال تقصد ؟ .

فهمس فى اذنها قائلا :

ـ السؤال الذى وجهته اليك منذ ايام .. هل تتزوجيننى يا ماريانكا ؟ .

ففكرت ماريانكا برهة ثم قالت :

ـ سوف اخبرك الليلة ..

ثم القت عليه نظرة حانية ، واسرعت للاشتراك فى الغناء الرقص .

***

واسرف ليوكا فى الشرب ، وراح يراقص البنات الواحدة بعد الاخرى ولما حاول ان يعانق أوستنكا ، نفر منه وقالت بصوت غاضب :

ـ اننى عائدة الى البيت .. وسوف تأتى ماريانكا معى .

ولكن ليوكا طوق ماريانكا بذراعه ، وهمس لها قائلا :

ـ لا يا ماريانكا .. لا تذهبى معها الآن .. اننى اريد ان استمتع بهذه الليلة معك .. عودى الى بيتك وسوف الحق بك .

ـ لا .. اننى اريد ان استمتع بالاحتفال .. ولسوف اذهب مع اوستنكا الى مسكنها .

ـ حسنا .. ولكننى سوف اتزوجك على كل حال .

فانفلتت ماريانكا منه وقالت فى تحد :

ـ سوف نرى .

فنظر اليها برهة وقد قطب جبينه : ثم قال فجاة :

ـ ماذا تعنين ؟ اذن فان ما سمعته هو الحقيقة ؟ حسنا .. ان موقفك هذا لن ينتهى الى خير .

وشعرت ماريانكا بالخوف وتمتمت قائلة !

ـ ماذا تعنى يا ليوكا ..

ـ اعنى علاقتك بذلك النزيل الروسى !.

فهتفت قائلة فى غضب !

ـ وما شـأنك انت ؟ انك لست ابى او امى . وانا حـرة فى علاقتى مع الغير .

ـ اذن تذكرى كلماتى هذه .

لم استدار وصاح مطالبا الفتيات والشبان بالمزيد من الغناء والرقص .

***

وقف اولنبى بالقرب من مسكنه فى الظلام . فلما راى ماريانكا تقترب ، اسرع اليها وطوقها بذراعه وقبلها قائلا :

ـ ماريانكا .. حبيبتى !.

وهمست !

ـ يكفى هذا الآن .. وعليك قل ان تقبـلنى ؟ أن تتزوجنى اولا ..

ـ لسوف اذهب الى ابيك غدا واخطبك منـه .. ولكن ارجو أن تكتمى الامر حتى تتم الخطبة .

ـ اننى لن اخبر احدا بشىء .

ـ هل تتزوجيننى يا ماريانكا ؟.

ـ نعم ..

ـ ولكن .. هل تحبيننى ، هذا هو المهم .. اناشـدك الله ان تصدقينى القول .

فضحكت وقالت وهى تضغط على يديه بيديها !

ـ ولماذا لا احبك ؟ انك شـاب ممتاز كريم .. وان يديك لناعمتان كالزبد .

ـ ماريانكا .. اننى جاد فى سؤالى .. هل تتزوجيننى ؟

ـ نعم .. اذا وافق ابى .

ـ ارجوك . لسوف اجن اذا عرفت انك تخدعينني .. لسوف احدث غدا مع والديك واطلب يدك منهما .

فلما ضحكت ، قال !

ـ لماذا تضحكين !.

ـ لا شيء .. ان الامر طريف .

ـ ولكنني جاد .. لسوف اشترى مزرعة كروم وبيتا واتقدم رسميا للجيش القوزاقى .

ـ المهم ان تخلص لى ولا تجرى وراء نساء غيرى . اننى لا احتمل هذا ..

ولهث اولنين من فرط السعادة ومن الالم فى وقت واحد .. السعادة وهو ينصت الى كلمات ماريانكا التى تنم عن مدى حبها له ، والالم لانه يراها واقفة تتحدث اليه فى هذا الامر الخطير بهدوء تام ، وكانما الحديث يدور حول شيء آخر لا اهمية له .

وعاد الى مسكنه وهو يقول لنفسه :

ـ ان الحياة ستمتد امامنا ، وسيفهم كلٌ منا الاخر على مر الايام .. وان حبى لها لا يمكن التعبير عنه بالكلام .. ولسوف اخبر والديها غدا .. واخبر بلتسكى واخبر القرية كلها ..

وفى خلال هذا ، كان ليوكا قد اسرف فى شرب النبيذ حتى فقد الوعى فقضى ليلته فى حانة يامكا .

***

واستيقظ اولنين فى بكور اليوم التالى مستبشرا ، ممتلىء النفس بالآمال التى كان يرجو ان تتحقق فى هذا اليوم .. ووثب من فراشه ليستعد للذهاب الى والديها ، ويظفر منهما بالموافقة على طلب يدها . ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد حين سمع ضجة فى الشارع ووقع الاقدام مقرونا «بدقدقة» حوافر الجياد ، ومن ثم اسرع الى مصدر الضجة بعد ان ارتدى سترته العسكرية فراى

الخمسة من الفرسان القوزاق يعرون في الشارع وهم يتبادلون الحديث باصوات مرتفعة وكان لبوكا يتقدمهم بكتفيه العريضتين فوق جواده الرائع . وكان احدهم يقول :

ـ لنمض الى المخفر الامامى .

وقال آخر :

ـ كن على حذر .. انك لم تسرج جوادك كما ينبغى .

وصاح لبوكا بوجه متوهج :

ـ هلم الى البوابة الجنوبية .. انها تؤدي الى اقرب طريق .

وصاح أولنين قائلا :

ـ ماذا حدث ؟ الى اين انتم ذاهبون ؟ .

ـ أننا مسرعون الى عصابة من التتر في الكثبان الرملية على هذه الضفة ان عددنا قليل ، ولكننا لا نستطيع الانتظار اكثر من هذا .

وادرك أولنين أن تخلفه عن الاشتراك معهم فى هذه الحملة سيكون مثار الحديث فى القرية ، ومن ثم بادر الى بندقيته فحملها والى جواده فاسرجه بمساعدة فانيوشا ، واستطاع ، هو وتابعه الشاب ، ان يلحقا بالفرسان الخمسة عند بوابة المدينة،وان ينضما اليهم .

وبعد مسيرة نصف ساعة ، لحق بهما اثنان آخران ، كان أحدهما مدرسا شابا بالمدرسة العسكرية ، وكان فى زيارة للقرية ، ومن ثم عهد اليه بقيادة الحملة ، ولكن القائد الفعلى لها كان لبوكا ، أما أولنين فان احدا لم يحفل به ، او يهتم بامره .

وراى اولنين أن يتقرب من المدرس العسكرى الشاب ليعلم منه ماذا حدث وكان المدرس لطيفا ، فقال لاولنين ان طابورا من جنود المخفر كان يقوم بجولة تفتيشية حين لمح عددا من رجال التتر الجبليين فى الكثبان الرملية على بعد نحو ستة أميال . واطلق التتر النيران على الطابور العسكرى قائلين انهم لن يستسلموا حتى



الموت . ولما كان الطابور لا يزيد على ثلاثة جنود وجاويش ؛ فقد تراجع افراده . وارسل الجاويش احد الجنود طالبا النجدة .

واشرقت الشمس ، وبدت تلال الرمال واضحة فى كل اتجاه ؛ وسار افراد الحملة فى صمت وعيونهم لا تغفل عن شىء ، وكان ليوكا يمضى فى المقدمة على جواده الرائع ، مرفوع الراس ، متوهج الوجه ، حاد النظرات ، وكان اولنين يختلس النظر اليه بين الحين والآخر فى اعجاب مقرون بالحسد والغيرة ، وكان فى الوقت نفسه قد قرر حين راى القوزاقيين يتجنبونه ، الا يشترك فى المعركة ؛ ولاسيما بعد ان اثبت شجاعته فى معارك سابقة نال عليها بعض الاوسمة ، ولكن السبب الرئيسى لرغبته فى عدم الاشتراك هو الشعور بالسعادة الغامرة ، وقد عز عليه ان تطفىء المعركة هذا الشعور .

وفجاة دوى طلق نارى من بعيد ، وتحمس المدرس الشاب واهتاجت مشاعره ، ولكن افراد الحملة القوزاقية لم يطرفوا بعيونهم . ولم تهتز فى ابدانهم شعرة ؛ وانما ظلوا منطلقين بسرعة وراء ليوكا الذى كان يندفع نحو مخبأ التتر بوجه كله عزم واصرار .

وفجاة اوقف ليوكا جواده وقال :

ـ ارى شخصا ما على جواد من بعيد .

ومد اولنين بصره فى كل اتجاه . ولكنه لم ير شيئا . ولكن القوزاقيين لم يلبثوا ان راوا ثلاثة رجال على جيادهم . فقال لهم اولنين :

ـ اهؤلاء هم التتر .

ولم يجب عليه احد الجنود ، وكانما ارادوا بصمتهم ان يبينوا له مدى حماقته فى توجيه سؤال كهذا ، وكانما ارادوا ان يقولوا له : هل يعقل ان يظهر التتر انفسهم بهذا الشكل !.

وقال ليوكا وهو يشير الى احد الجنود الثلاثة المسرعين نحوهم :

ـ هاهو ذا الزميل رودكا يلوح بيديه . . ترى ماذا حدث !.

وبعد لحظات اقبل الجنود الثلاثة وكان من بينهم الجاويش جوركا . وانضموا لبقية الحملة .

وسأل ليوكا الجاويش جوركا قائلا :

ـ على اية مسافة يكمن التتر ؟

فأشار الى تل رملي وقال :

ـ انهم على مرمى البنادق من هذا التل . وقد تركت احد جنودى ليمنعهم من الزحف .

وترجل الجميع عن الجياد ، ومضوا الى التل الرملي حيث كان احد الجنود يتبادل مع التتر اطلاق النار . ومرت رصاصة بجوار اولنين ، فجفل وتراجع مما جعل ليوكا يقول له ساخرا :

ـ ابتعد انت عن هذا المكان .. انه شديد الخطر عليك .

ولكن اولنين اصر على ان يرى هؤلاء التتر المغيرين المصرين على الانتصار او الموت .

واطل براسه من فوق حافة المرتفع ، ولم يلبث ان لمح على مسافة بعيدة ، نتوءا من الرمال تبدو وراءه قلنسوات التتر وفوهات بنادقهم . وكان عددهم لايزيد على تسعة رجال اشداء .

وقال ليوكا :

ـ يجب ان نحضر عربة تبن وندفعها امامنا ونلوذ بها فى اثناء تقدمنا نحوهم ، والا فانهم سيصيدوننا الواحد بعد الآخر .

ثم اشار الى مرتفع رملي قريب وقال :

ـ توجد فى هذا المرتفع عربة تبن وضعت لهذه الاغراض .. هلم نات بها ..

وسرعان ما كان جنود الحملة يدفعون بعربة التبن امامهم مستترين وراءها فى تقدمهم نحو التتر المترقبين لهم . وكان رجال التتر التسعة متحفزين ، وقد ركعوا على الرمال واستعدوا لاطلاق النار فى الوقت المناسب .

وظل الجنود القوزاق ، وراء العربة . يقتربون حثيثا من التتر . وكان اولنين يتوقع ان يرى التتر يطلقون النار فى اية لحظة، ولكنهم كانوا يتحفزون وهم يرددون نشيدا جنائزيا ؟ وفجأة توقف النشيد وانطلقت رصاصة من صفهم ، وملأت الجو صيحاتهم .. ولعنااتهم

وطلقات بنادقهم ، ولكن الجنود القوزاق ظلوا يتقدمون مستترين بعربة التبن ، دون ان يطلقوا رصاصة واحدة ، حتى غدوا على مسافة ياردات من مكمن التتر .

وفي لحظة واحدة ، اندفع الجنود من جانبي العربة ، يتقدمهم ليوكا ، وصياحهم يمزق الجو .. وسمع أولنين دوى بضع طلقات نارية ، ثم صيحات توجع وانين ، ولاح له انه راى الدماء تتطاير بين سحب الدخان . وترجل عن جواده بسرعة .. واندفع الى زملائه ليساعدهم في المعركة ، ولكنه فوجىء بان كل شيء انتهى في لحظات ، وان الجنود القوزاق اطبقوا على التتر وقتلوا بعضهم واسروا البعض الآخر ، وكان ليوكا ممسكا بذراع تترى جريح وهو يصيح في زملائه قائلا :

ـ لا تقتلوه .. انني اريده حيا .. انه شقيق التترى الذي قتلته .. انه الرجل نفسه الذى جاء ودفع الفدية ليتسلم جثة اخيه .

وكان ليوكا يلوى بعنف ذراع التترى ، ولكن هذا تخلص منه فجاة ، واطلق عليه النار من غدارته وسقط ليوكا على الأرض ، وانبثقت الدماء من بطنه ، ولكنه وثب واقفا وراح يغمغم باللعنات ، وحاول ان يهجم على التترى ، ولكن نازار كان أسرع منه ، فاطلق مسدسه على التترى وقضى عليه . واسرع زملاء ليوكا اليه لاسعافه .

وانتهت المعركة ، وحملت الجثث واقتيد الاسرى الى دار شيخ القرية وعاد اولنين الى مسكنه ، وفي المساء سمع ان ليوكا لم يمت ، وان كان جرحه خطيرا ، ولكن احد الاطباء عبر النهر ووعد بالحضور لاسعافه ببعض الأعشاب المعينة .

وانتظر أولنين حتى فرغت ماريانكا من اعمالها المنزلية في الفناء وفي حظيرة المواشي ، ثم ذهب اليها في كوخها . وهناك رآها واقفة وظهرها اليه ، فظن أن الحياء العذرى يغلبها على امرها ، ومن ثم قال :

ـ ماريانكا .. هلّ تسمحين لي بالحديث معك ؟ .

فاستدارت نحوه فجاة وقد تبللت عيناها بالدموع ، وارتسم

الحزن العميق على وجهها الجميل . ونظرت اليه فى ترقع صامت !
وعاد هو يقول :

ـ ماريانكا .. لقد جئت ..

فهتفت قائلة وقد انسابت الدموع على وجنتيها غزيرة !

ـ دعنى وشأنى .

ـ ما هذا ؟ ماذا حدث ؟.

فقالت بصوت جاف !

ـ ماذا حدث ؟ القوزاقيون قد قتلوا .. هذا هو ماحدث .

ـ اتعنين ليوكا !.

ـ ابتعد عنى .. اننى لا اريد منك شيئا .

فقال لها عاتبا :

ـ ماريانكا !.

ـ انك لن تنال منى شيئا ابدا .

فقال أولنين متوسلا :

ـ ماريانكا .. لا تتحدثى الى هكذا .

فصاحت الفتاة وهى تضرب الأرض بقدمها !

ـ ابتعد عنى ، اغرب عن وجهى . اننى اكرهك .

***

وادرك اولنين من تعبيرات وجهها المتلىء بالكراهية والغضب والاحتقار انه فقد كل امل معها ، وانه ، كما كان يظن من قبل ، لا يعنى فى حياة هذه الفتاة شيئا على الاطلاق .

وبهذا الشعور الثقيل ، اندفع خارجا من الكوخ دون أن يجيب بشىء .

***

وبعد عودته الى مسكنه ، رقد فى سريره نحو ساعتين بلا حراك . ثم نهض ومضى الى قائد وحدته وطلب منه الاذن بالانضمام الى القوات المقاتلة . وبدون أن يودع أحدا ، وبعد ان أرسل فانيوشا «ليسوى» حساب اقامته مع والد ماريانكا استعد للرحيل الى القلعة التى تقيم فيها القوات المقاتلة . وكان العجوز ايروشكا هو الوحيد الذى جاء لزيارته فى ذلك اليوم . فجلس معه يشرب

الكأس بعد الاخرى حتى وقفت المركبة التى ستقله وحاجاته الى القلعة امام الباب .

وقال اولنين للعجوز ابروشكا :

ـ كيف حال ليوكا ؟ هل سيشفى من جرحه الخطير ؟.

ـ الله وحده يعلم . ولكن شيخ القرية ارسل يستدعى طبيبا جراحا من مدينة جروزنى .. آه .. ذكرتنى .. يجب ان امضى الى ماريانكا واطمئنها عليه ..

ونهض اولنين وصافح العجوز قائلا :

ـ حسنا يا ابروشكا .. وداعا ..

وضغط العجوز على يد اولنين بحرارة وقال :

ـ وداعا يا صديقى الشاب .. اننى احبك .. احبك كابن لى وداعا .

ولما اتخذ اولنين مقعده فى المركبة . قال ابروشكا :

ـ اعطنى تذكارا يا عزيزى اولنين ، ان معك بندقيتين .. اعطنى احداهما .. ماذا ستفعل باثنتين ؟.

فابتسم اولنين ، وقدم بندقيته للعجوز ، على حين قال فانيوشا مستنكرا :

ـ ان جشع هذا العجوز الخبيث ليس له حدود .

وفى تلك اللحظة خرجت ماريانكا من حظيرة المواشى . والقت نظرة عابرة على المركبة ، ثم استدارت وسارت نحو باب كوخها .

وغمز فانيوشا بعينه وقال وهو يضحك بحماقة :

ـ يا لها من فتاة !.

وهتف به اولنين غاضبا :

ـ هلم امض ..

وصاح العجوز ابروشكا قائلا :

ـ وداعا يا ولدى .. وداعا .. اننى لن انساك .

ولما تحركت المركبة ، نظر اولنين وراءه ، واذا هو يرى العجوز ابروشكا يتحدث مع ماريانكا فى شأن من شئونه الخاصة كما يبدو دون ان يحاول هو او الفتاة القاء نظرة واحدة عليه .

« تمت »

الدار القومية للطباعة والنشر